الأب بيير جورجو جانَتْسا

أومن بالحياة الأبدية (١)

الحياة. الموت. الدينونة.

سلسلة «باب الإيمان»

الإيمان المسيحي

١) «إني أومن، يا رب، ولكن زدني إيمانا» مدخل إلى قانون الإيمان
٢) الإيمانُ المسيحيّ واللامُبالاةُ الدينيّة
٣) الله أَمْ الإنسان؟
٤) كنائس الشرق الأوسط في مسيرتها نحو الوحدة
٥) لماذا لا أزالُ حتى اليوم في الكنيسة؟
٦) أومن بالحياة الأبدية (١) – الحياة. الموت. الدينونة.

منشورات مكتبة يسوع الملك
بيت ساحور

مطبعة البطريركية اللاتينية – القدس
بيت جالا – تشرين الأول ٢٠١٦

مقدّمة

إنّك تعيش حياتك، بما فيها من مشاريع كثيرة. تفكّر بحاضرك ومستقبلك بكثير من الأمل. وممّا لا شكّ فيه أنّك تساءلت أيضًا في بعض الأحيان: ماذا بعد الموت؟ هل من حياة بعد الموت؟ أيّ نوع من الحياة؟ أين؟ كيف؟ ماذا تعني «الحياة الأبديّة»؟... أم أنّ كلّ ذلك هو مجرّد أوهام؟ أمّا نحن، الذين قبِلنا نعمة الإيمان، فإنّنا ننطلق من حقيقة أكيدة وراسخة، أكّدها يسوع في قوله لمرتا: «أنا القيامة والحياة. مَن آمن بي، وإن مات، فسيحيا» (يوحنا ١١: ٢٥).

ومع ذلك، ففي حياتنا اليومية، قليلا ما نفكّر في الموت وفي الحياة بعد الموت. فنحن نجري وراء شؤون حياتنا اليوميّة، ممّا يحول دون التفكير في الغد، في الأبديّة، في مصيرنا بعد الموت. عندما نشارك في جناز ما، قد نفكّر: «لقد جاء دوره أو دورها»، ولكنّنا لا نواصل التفكير قائلين: «يومًا ما، سيأتي دوري، أنا أيضا. هل أنا جاهز؟ هل أستعدّ لهذا اليوم؟». إنّنا منشغلون بالتزاماتنا الكثيرة، وننسى أنّ التزامنا الأكبر هو الاستعداد لهذا اللقاء بالله ساعةَ موتنا، وهو اللقاء الحاسم، الذي سيقرّر دخولنا في الفرح الدائم مع الله أو الابتعاد عنه في الهلاك الأبدي. يذكّرنا القديس بولس أنّ الإنسان، بعد

الموت، «يحصد ما يزرع. فمَن زرع لجسده حصد من الجسد الفساد، ومن زرع للروح حصد من الروح الحياة الأبديّة» (غلاطية، ٦: ٧–٨).

نحن المسيحيّين، نؤمن بالحياة الأبديّة، ونعلن هذه الحقيقة في «قانون الإيمان»، حيث نقول في خاتمته: «ونترجّى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي».ولقد لخّص التقليد المسيحي رؤيته حول هذا الموضوع بكلمة «أواخر الإنسان»، وتشمل الموت، والدينونة، وجهنم، والسماء. وإلى هذه المفاهيم الأربعة، يجب أن نضيف أيضا أمرين أساسيّين، هما قيامة الجسد وعودة السيد المسيح ثانية. أمّا المطهر، فمع أنّه جزء لا ينفصل عن أواخر الإنسان، فهو مرتبط بالسماء، بما أنّه يشكّل مرحلة للتنقية الأخيرة قبل الدخول في السماء.

لقد أعطت الكنيسة أهميّة لهذه الحقائق الإيمانيّة دائمًا، سواء في الاحتفالات الليتورجيّة أو في الكرازة والتعليم المسيحي أو في ممارسة الحياة المسيحيّة. في التقليد الكاثوليكي اللاتيني، تخصّص السنةُ الليتورجية يومًا خاصًّا، هو الثاني من تشرين الثاني، لذكرى الموتى والصلاة من أجلهم. وفي هذه المناسبة، تدعو الكنيسة إلى التفكير أيضا في الموت، وبالتالي في المعنى الذي يضفيه إلى حياتنا، فنكون مستعدين للقاء الربّ ساعة موتنا، فيكون لقاء حبّ في رحابه، لا لقاء دينونة وإدانة. وفي اليوم السابق، أي الأول من تشرين الثاني، تذكر الكنيسة

جميع القديسين والمخلَّصين الذين يتمتّعون في السماء برؤية الله، وتدعو المسيحيّين المجاهدين على الأرض إلى أن يوجّهوا أنظارهم صوب الوطن السماوي: «إسعوا إلى الأمور التي في العلى حيث المسيح قد جلس عن يمين الله. ارغبوا في الأمور التي في العلى، لا في الأمور التي في الأرض» (قولسي ٣: ١–٢). وفي السنة الليتورجيّة، يمكن القول أيضا إنّ الأيام، التي تناسب أكثر من غيرها للتأمّل في الأواخر، هي سبت النور وأحد القيامة. ففي سبت النور، نذكر نزول يسوع إلى مقرّ الموتى، ليخلّص جميع الذين انتظروا خلاصه ووضعوا رجاءهم فيه. وفي أحد القيامة، نحتفل بقيامة المسيح من بين الأموات، كما سبق وقال إنّ ابن الإنسان «بعد قتله بثلاثة أيام يقوم» (مرقس ٩: ٣١).

من الواضح أنّ التفكير في مثل هذه الأمور الأساسية يجب ألا يقتصر على بعض أيام السنة أو على بعض المناسبات، كوفاة عزيز أو قريب أو صديق أو في مناسبات المخاطر الكبرى أو الكوارث، كالحروب والهزّات الأرضيّة والفيضانات والحرائق، مع ما تجرّه من دمار ووفيات. إنّ تذكُّر أواخر الإنسان يجب أن يرافق المسيحي في كلّ وقت، لا من باب الحزن والخوف، بل من باب التعزية والحافز لعيش حاضرنا بشكل أفضل. إنّ الحاضر هو الفرصة الوحيدة المُعطاة لنا، لأنّ الماضي مرّ ولا يعود، والمستقبل لم يأت بعد ولا أعرف

ما ينتظرني فيه. هذه هي الحكمة المسيحيّة: أن أعيش الحاضر في ضوء الأبديّة، فأسعى إلى أن أعيش بشكل أفضل، بعيدًا عن الخطيئة، بحسب تعليم يسوع الذي يعلّمنا في «الصلاة الربيّة» أن نصلّي قائلين: «لا تدخلنا في التجربة» (متى ٦: ١٣)، أي: أيّها الآب، لا تجعل التجربة تتغلّب علينا، بل «نجنا من الشرير».

يجب القول إنّ العالم المُعاصر لا يعطي أهميّة لهذه الحقائق الجوهريّة، كما كان الحال في السابق. أليس صحيحًا أنّنا لا نقول إلا القليل، وفي كلّ الأحوال أقلّ من السابق، أو حتى لا شيء، عن هذه الحقائق في الكرازة والتعليم المسيحي والرياضات الروحيّة؟ قد يكون أنّنا بالغنا، في السابق، في حديثنا عن هذه الأمور، ولكنّنا اليوم نبالغ من ناحية أخرى، في سكوتنا عنها. يبدو أنّنا منغمسون في الأمور الأرضيّة، ولا نجد الوقت للتفكير في الحياة الأخرى. إذا أشرنا إلى الموت، فإلى موت الآخرين. وإذا ذكرنا الدينونة الإلهية، فذلك بخوف ورهبة. وإذا ذكرنا قيامة الموتى، فلكي يشكّك فيها الكثيرون، لا بل حتى ينكروها. وإذا ذُكرت جهنم، فالأسئلة المطروحة هي فقط من باب الفضولية المتحذلقة. إنّ هذه الأمور هي مسألة حياة أو موت، ولكنّنا نفضل الاهتمام بالأمور الزائلة، كالاهتمام، مثلا، بالمجد الزمني، وبالمال، الذي لا يكفينا قط ولا يشبع رغباتنا، وبالملذات التي تتبخّر في لحظة واحدة.

لا تقتصر الحياة على النجاح على هذه الأرض، بل تشمل

السعي إلى السعادة الأبديّة في الزمن الآتي. في وحي العهد القديم، نجد هذا القول للحكيم ابن سيراخ: «في جميع أعمالك اذكر أواخرك، فلن تخطأ ابدا» (ابن سيراخ ٧: ٣٦). وهنا نلاحظ أنّ الحكيم يدعونا إلى تذكّر أواخرنا، بين الحين والآخر، بل في «جميع أعمالنا». وهذا ما يشير إلى حالة دائمة، تربط لحظات حياتنا وأعمالها بما سيحصل لنا في نهايتها، فتكون مرضية لدى الربّ. يجب ألّا نقول: «غدًا أبدأ»، لكي نعود في الغد إلى القول من جديد: «غدًا أبدأ». عندما نعيش حاضرنا «في ضوء الأبديّة»، كما كان يقول الآباء القديسون، عندها نسهر على جميع أفكارنا وأقوالنا وأعمالنا، كي نعيش في سلام مع الله. وهذا ما يشجّعنا عليه القديس بولس بقوله: «فأمّا وقد قُمتم مع المسيح، فاسعَوا إلى الأمور التي في العلى، حيث المسيح قد جلس عن يمين الله. ارغَبوا في الأمور التي في العلى، لا في الأمور التي في الأرض، لأنّكم قد متّم وحياتكم محتجبة مع المسيح في الله. فإذا ظهر المسيح الذي هو حياتكم، تظهرون أنتم أيضا عندئذ معه في المجد» (قولس ٣: ١-٤).

الفصل الأول

معنى الحياة وقيمتها

١) الحياة أسمى هبات الله

ولكي نفهم الموت فهمًا أفضل، علينا، قبل كلّ شيء، أن نفهم الحياة فهمًا أفضل. إنّ الموت هو نهاية هذه الحياة الأرضيّة، التي لن تتكرّر. فما هي هذه الحياة؟ من أين تأتي؟ مَن وهبنا إيّاها ولماذا؟ وهل من قواعد لعيشها؟ إذا كانت الحياة شيئًا جميلا، وإذا كنّا متعلّقين بها، فلماذا نتذمّر في بعض الأحيان، حتى إلى حدّ الرغبة في الموت؟ وإذا ألـمّت بنا بعض المصائب التي تضع حياتنا في خطر، كالأمراض والإخفاقات العائلية والكوارث الاقتصادية، لماذا نخاف على حياتنا؟ وما رأينا في الذين ينتحرون؟ وفي نهاية الأمر، ما هو الموت؟ هل أرى موت الآخرين فقط أم أرى موتي أنا ايضا؟ هل أستبعد هذه الفكرة عن ذهني، أم أفكّر فيها مليّا، فاستعدّ للموت بأحسن الطرق الممكنة؟ لا نستطيع أن نتغاضى عن هذه الأسئلة، فنقول: «عندما يحين الوقت، افكّر في هذه الأمور». يحذّرنا يسوع من هذا التغاضي في مثل الغني الذي يبني مشاريع كبيرة لحياة مجيدة، فيسمع الله يقول له: «يا غبيّ، في هذه الليلة تُستَرَدّ

نفسك منك» (لوقا ١٢: ٢٠).

إنّ الحياة، حياتك، هي أسمى هبة منحك إيّاها الله. وهذه الهبة ليست مجرّد وجود، كوجود الكائنات غير العاقلة، كالنباتات والحيوانات. إنّها حياة كائن بشري، يحبّ، ويفكّر، ويدرك، ويريد، ويشعر، ويدخل في علاقة مع الآخرين. منذ الأزل، لم يفكّر الله فيك وأحبّك فحسب، بل أرادك ايضًا خليقة حيّة وفريدة على الأرض، فنفخ فيك من روحه كما يعلّم الكتاب المقدّس: «وجبل الربّ الإله الإنسان ترابًا من الأرض ونفخ في أنفه نسْمة حياة، فصار الإنسان نفْسًا حيّة» (تكوين ٢: ٧). لقد خلقك أسوة بالألوف المؤلّفة من الرجال والنساء، ولكنّه يحبّك حبّا شخصيّا، وكأنّك الوحيد في هذا العالم. ولم يعطك الحياة الطبيعيّة فحسب، بل الحياة الفائقة الطبيعة ايضا، وذلك عندما قال: «لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا...، فخلق الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهم» (تكوين ١: ٢٦-٢٧). وتتويجًا لعطاياه، جعلك في العماد ابنًا بالتبنّي: «أُنظروا أيّ محبّة خصّنا بها الآب لنُدعى أبناء الله، وإنّنا نحن كذلك» (١ يوحنا ٣: ١).

٢) كيف يعيش البشر هذه الهبة؟

في حالة القداسة الأصلية قبل الخطيئة، فقد عاش أبوانا الأوّلان، آدم وحواء، حياتهما في شركة كاملة مع الله، وفي

تناغم كامل بينهما ومع الكون المخلوق. لذلك، كانت حياتهما في ملء السعادة، المؤسَّسة على حبّ الله الذي «كان يتمشّى في الجنّة» (تكوين ٣: ٨)، ويقيم معهما. ولكنّ ملء الحياة هذا أُتلفَ، عندما جرّبتهما الحيّة (الشيطان) فخالفا وصية الله، واقترفا ما ندعوه «الخطيئة الأصلية» (راجع تكوين ٣: ١-٧). وبهذا، جرّا كلّ نسلهما إلى هذا الوضع من الحياة الصعبة والضعيفة، المعرَّضة لتجربة الشيطان والميل إلى الشر. ولكنّ الله لم يتخلَّ عن خليقته، بل وعد، برحمته اللامتناهية، بمن يأتي من نسل المرأة ويسحق رأس الحيّة (تكوين ٣: ١٥). حتى في التجارب والشدائد، تعود الحياة إلى الابتسامة من جديد، على الرغم من بقاء حبائل الشر والتجارب والشدائد. يختار كلّ إنسان بحرية طريقه في الحياة، إمّا مع الله، أو ضده، أو بمعزل عنه.

يعرض لنا الكتاب المقدّس، وهو كتاب الله وكتاب الإنسان، نماذج واقعيّة متعدّدة لعيش حياتنا، من خلال شخصيّات حيّة، أو من خلال أفكار ورؤى وشروحات، يمكن تلخيصها بثلاثة أشكال أساسيّة: الشكل الإيجابي أو المتفائل للحكيم المؤمن، أو الشكل السلبي والمتشائم للمتشكك، أو الشكل اللامبالي واللاهي للكافر.

يدرك **الحكيم** القيمة الفريدة للحياة ويسعى إلى عيشها بحسب شرائع الله. إنّه يعيش حياته مع الله، وإليه يرفع هذه

الصلاة: «أيام سنينا سبعون سنة، وإذا كنّا أقوياء فثمانون، وجلّها عناء وشقاء، تمرّ سريعًا ونحن نطير... علِّمنا كيف نعدّ ايامنا، فننفذ إلى قلب الحكمة. إرجع يا ربّ! حتى متى؟ ترأف بعبيدك. برحمتك أشبعنا في الصباح، فنهلّل ونفرح كلّ أيام حياتنا» (مزمور ٨٩: ١٠-١٤). أمّا **الغبي** أو اليائس، الذي امتحنه الله، والذي يمكن أن يصل به الحدّ، في غمرة يأسه، إلى أن يلعن حياته، كما فعل أيّوب الذي اختُبر إلى أقصى الحدود، والذي «فتح فاه ولعن يومه» «وقال: لا كان نهار وُلدت فيه ولا ليل قال: قد حُبل برجل! ليكن ذلك النهار ظلامًا ولا رعاه الله من فوق ولا أشرق عليه نور! لتُطالب به الظلمات وظلال الموت وليستقرّ عليه غمام ولْتَروِّعه كواسف النهار!... ولا يُضمَّ إلى أيام السنة ولا يدخل في عدد الشهور!» (ايوب ٣: ٤. ٦). وأخيرا **اللّاهون**، الذين يدعوهم الكتاب المقدس «الكافرين»، الذين «فكّروا تفكيرا خاطئا، فقال بعضهم لبعض: قصيرة حزينة حياتنا وليس لنهاية الإنسان من دواء و لم يُعلم قط أنّ أحدًا رجع من مثوى الأموات، لإنّنا وُلدنا اتّفاقًا وسنكون من بعدُ كأنّنا لم نكن قط... إنّ أيامنا مرور الظلِّ ونهايتنا بلا رجعة، لأنّه مختوم عليها، فما من أحد يعود. فتعالَوا نتمتّع بالطيبات الحاضرة وننتفع من الخليقة بحميّة الشباب. لتكن قوّتنا شريعة العدل، فإنّه من الثابت أنّ الضعف لا يُجدي نفعًا» (الحكمة ١: ١٦، ٢: ٥. ٦. ١١).

لكلّ هذه الأصناف البشرية، التي تدرك معنى الحياة

وهدفها بشكل مختلف، طريقة عملية لعيش الحياة. من منطلق حريته، يختار كلّ إنسان كيف يعيش حياته، ولكنّه يتحمل مسؤولية اختياره. في نهاية حياته الأرضيّة، على الإنسان أن يجيب الله، نبع الحياة ومعطيها، كيف عاش مغامرته البشرية. لقد وضع الله في قلب كلّ إنسان قواعد الحياة. بالنسبة إلى الديانات الموحى بها، أوحى الله بتعاليمه عن طريق الأنبياء والقدّيسين. وهذه التعاليم تقود إلى الحياة، كما أكّد يسوع للشابّ الغنيّ: «إذا أردتَ أن تدخل الحياة، فاحفظ الوصايا» (متى ١٩: ١٧). ونحن، المسيحيين، نؤمن أنّ الله أعطانا ابنه بالذات، الذي أصبح انسانا من أجل خلاصنا، وهو «الطريق والحق والحياة» (يوحنا ١٤: ٦)، فتكون الحياة لـمَن يتبعه.

٣) يسوع مثال الحياة الأعلى

كيف عاش يسوع حياته؟ **خارجيًا**، تُقسم حياته إلى مرحلتين: الحياة الخفيّة (في عائلته)، «نحو ثلاثين عامًا» (لوقا ٣: ٢٣).، ومن ثمّ الحياة العلنيّة (الكرازة، اختيار التلاميذ، المعجزات، الآلام والموت) لمدة ثلاث سنوات فقط. يبدو أنّ الثلاثين سنة، التي قضاها في الناصرة، في حياة طبيعية وعادية مع وبجانب أهل مدينته، ليس لها أهمية كبرى في حياته. بالنسبة إلى مواطنيه من أهل الناصرة، لم يكن إنسانًا خارج المألوف. فكانوا يعتبرونه بكلّ بساطة «ابن النجار» (متى ١٣: ٥٥) أو حتى

«النجار، ابن مريم» (مرقس ٦: ٣). ولكنّ الأمر لم يكن كذلك في الحقيقة. يذكر لنا لوقا الإنجيلي جملتين بالغتي الأهميّة تضيئان كلّ هذه المرحلة من حياته، لا بل حياته كلّها. الأولى، نجدها في جواب يسوع لوالديه، وهو في الثانية عشرة من عمره، عندما بحثا عنه بعد ضياعه، ووجداه أخيرا في الهيكل. فقد أجابهما: «ولِمَ بحثتما عنّي؟ ألم تعلما أنّه يجب عليّ أن أكون عند أبي؟» (لوقا ٢: ٤٩). لهذا الجواب دلالاته العميقة، لأنّه يشير إلى حقيقتين أساسيتين: الأولى هي وعيه بأنّه ابن الله الآب، والثانية، هي أنّ حياته كلّها تتّجه نحو الآب. أمّا الجملة الثانية، فهي إشارة لوقا حول طريقة حياة يسوع. إنّه يصفها بهذه الكلمات: «وكان يسوع يتسامى في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس» (لوقا ٢: ٥٢). تشكّل هذه الآية ملخَّصا رائعًا لتلك السنوات من النضج الإنساني، في مختلف جوانب حياته (الجسميّة والعقليّة والخلقيّة والاجتماعيّة والدينيّة...)، ودائما في كنف الله وبحسب مخطّطه الخلاصي، بشفافية كاملة وتناغم بين التصرّفات والخدمة في الأسرة وفي المجتمع.

من أجل كلّ ذلك، كانت هذه السنوات الثلاثين من حياة يسوع الخفيّة خلاصيّة، كما ستكون السنوات الثلاث من حياته العلنيّة. إن كلّ لحظة من لحظات حياته الأرضيّة لها قيمة خلاصيّة، من التجسّد إلى الموت، علمًا بأن آلامه وموته هما التحقيق الأسمى لهذا الخلاص. إنّ حياة يسوع في الناصرة هي

البداية الصامتة، ولكنّه صمت ناطق، كما كانت أمثال السيد المسيح وخطبه ناطقة، تؤثّر في القلوب وتشدّها وتغيّرها: «من كان له أذنان تسمعان فليسمع!» (لوقا ٨: ٨).

هذا من الناحية الخارجيّة. أمّا من الناحية **الداخليّة**، فحياة يسوع كلّها كانت متّجهة نحو الآب ومكرَّسة له، حبّا له وطاعة لمشيئته. كانت حياته فعل حبّ وطاعة للآب وفعل حبّ للبشر. وهذا هو الحبّ بالذات الذي يمنح الخلاص للجميع. وهذا ما يؤكّده يسوع نفسه في حواره مع نيقودمس: «إن الله أحبّ العالم حتى إنّه جاد بابنه الوحيد، لكي لا يهلك كلّ مَن يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة» (يوحنا ٣: ١٦)، ولا يكلّ عن تكراره لتلاميذه وللجموع: «نزلتُ من السماء، لا لأعمل مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني» (يوحنا ٦: ٣٨). وأيضا: «إنّ ابن الإنسان لم يأت ليُخَدم، بل ليخدُم ويفدي بنفسه جماعة الناس» (مرقس ١٠: ٤٥). وفي نهاية حياته، يرفع هذه الصلاة للآب: «إنّي قد مجّدتك في الأرض، فأتممتُ العمل الذي وكلتَ إليّ أن أعمله» (يوحنا ١٧: ٤). باختصار، لقد عاش حياته لتكون حياة من أجل الآخرين، كما يؤكّد هو نفسه: «أمّا أنا فقد أتيت لتكون الحياة للناس وتفيض فيهم» (يوحنا ١٠: ١٠).

عاش يسوع حياته القصيرة بكلّ ملئها وحيويّتها، وهذا ما يعبّر عنه عندما يقول: «جئتُ لألقي على الأرض نارًا وما أشدّ رغبتي أن تكون قد اشتعلت!» (لوقا ١٢: ٤٩). إنّه يتمنى أن

تأتي ساعته، التي يكشف عنها في لحظة مهمّة من حياته: «الآن نفسي مضطربة، فماذا أقول؟ يا ابت، نجّني من تلك الساعة. وما أتيتُ إلّا لتلك الساعة. يا أبت، مجّد اسمك. فانطلقَ صوت من السماء يقول: «قد مجّدته وسأمجّده أيضا» (يوحنا ١٢: ٢٧-٢٨). بهذه التعابير، المشابهة إلى حدّ كبير لصلاة يسوع ثلاث مرات في الجسمانية، يشير يسوع إلى صراعه الداخلي بين الإرادة البشرية التي ترفض الألم، والإرادة الإلهية التي قرّرت العمل بحسب تدبير الآب. يسلّم يسوع ذاته كليًّا بين يدي الآب، ويقبل إرادته، ويعبّر عن ذلك في صلاته: «يا أبت، قد أتت الساعة: مجّد ابنك ليُمجّدك ابنك» (يوحنا ١٧: ١).

لماذا عاش يسوع حياة قصيرة، أي ثلاثة وثلاثين عامًا؟ أراد يسوع بذلك أن يبيّن لنا أنّ المهم ليس عدد السنين، بل كثافة الحبّ الذي يعطي لها قيمة ابديّة. وعلى هذا، يعلّق القديس بولس قائلا: «فالآن تبقى الأمور الثلاثة: الإيمان والرجاء والمحبّة، ولكنّ أعظمها المحبة» (١ قورنتس ١٣: ١٣).

٤) كيف يريد يسوع أن نعيش حياتنا؟

عندما يتناول السيّد المسيح حياتنا في وجودها الأرضي ليبيّن لنا كيف نعيشها، يركّز على مجموعة من المواقف، نذكر ثلاثة منها: الصفاء، الجدّيّة، الفرادة.

– الصفاء:

إنّ صفاء الحياة هو الصفاء الذي نعيشه مع الله وفي الله الآب. إتّكلْ عليه، استسلمْ له، عشْ من أجله، فيكون الله معك ولك. «فلا تهتمّوا فتقولوا: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فهذا كلّه يسعى إليه الوثنيون، وابوكم السماوي يعلم أنّكم تحتاجون إلى ذلك كلّه. فاطلبوا أولا ملكوته وبرّه تُزادوا هذا كلّه. لا يهمّكم أمر الغد، فالغد يهتمّ بنفسه. ولكلّ يوم من العناء ما يكفيه» (متى ٦: ٣١-٣٣). من الواضح أنّ يسوع لا ينادي بالخنوع والكسل واللامبالاة، بل يقول: «اعملْ، ولكن لا وحدك، بل مع الله وهو يعينك». على بحيرة جناسرت، فقَدَ بطرس هدوءه وخاف خوفًا شديدًا من الموت، وفقَد ثقته بيسوع، الوحيد الذي كان بإمكانه أن يخلصّه من الغرق. ولما أمسكه يسوع وسحبه إلى السفينة، لم تسكن الريح فقط وهدأ البحر، بل سكن قلب بطرس أيضا (راجع متى ١٤: ٢٢-٣٣). مَن يسكن الله في قلبه، يتمتّع بالسلام الداخليّ. وهذا ما يتغنّي به مزمور جميل: «بل أسكن نفسي وأُسكِنُها. مثل مفطوم عند أمّه، مثل مفطوم هكذا نفسي عليّ» (مزمور ١٣١: ٢-٣).

– الجدّيّة:

الحياة شأن جدّيّ، لا يحقّ لنا أن نبذّرها سدى في أمور صغيرة لا معنى لها، بل تتطلّب التزامًا لبنائها على أساس القيم

التي لا تزول، لا على القيم الزائلة والعابرة والباطلة. إنّ مثلَي الغنيّ ولعازر المسكين (لوقا ١٦: ١٩-٣١) ومثل الغني الذي لا يفكّر إلا بتكديس الخيرات الماديّة (لوقا ١٢: ١٦-٢١) يبيّنان أنّ هؤلاء الأغنياء حصروا حياتهم في البحث عن الخيرات الزائلة، وأهملوا نفوسهم. أمّا يسوع فيعلّمنا أنّه يجب أن نبني حياتنا على القيم الأبديّة، لنكدّس الكنوز التي لا تزول (متى ٦: ١٩-٢١). وهذا ما يدعونا إليه يسوع عندما يقول: «إنّ الذي يريد أن يخلّص حياته يفقدها، وأمّا الذي يفقد حياته في سبيلي وفي سبيل البشارة، فإنّه يخلّصها. فماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كلّه وخسر نفسه؟ وماذا يعطي الإنسان بدلا لنفسه؟» (مرقس ٨: ٣٥-٣٧). ولهذا، كثيرًا ما يحثّنا يسوع على السهر كي نكون على أتمّ الاستعداد لملاقاة الربّ: «فاسهروا إذًا، لأنّكم لا تعلمون أيّ يوم يأتي ربّكم... لذلك كونوا مستعدّين، ففي الساعة التي لا تتوقّعونها يأتي ابن الإنسان» (متى ٢٤: ٤٢. ٤٤). واستعدادنا هذا، لا يأتي في اللحظة الأخيرة، لأنّنا قد نجد الباب مغلقًا أمامنا، بل هو استعداد يوميّ بالأمانة والثبات. طيلة حياتنا، نستعدّ للميتة الصالحة، من غير أن يستولي علينا الخوف والقلق من الموت. في التقليد الروحي المسيحي، نجد تعليمًا نابعًا من الخبرة الروحيّة الطويلة، تلخّصه هذه الكلمة: «تذكّر أنّك تموت». من غير أن نُقلع عن جمال الحياة وصلاحها، نحن مدعوّون إلى التفكير أنّ الحياة ستنتهي يومًا ما، وما ينفعنا

للحياة الأبدية هو الأعمال الصالحة التي قمنا بها.

– الحياة لا تتكرّر:

إنّ الحياة التي نعيشها واحدة وحيدة لا سواها ولا تتكرّر، وبالتالي فهي حاسمة. وهذا ما يذكّرنا يسوع به، بالصيغة الإيجابية والسلبيّة. في الصيغة الإيجابيّة، يمكن أن نقرأ إرشاد يسوع لتلاميذه بصيغة الجمع: «يجب علينا، ما دام النهار، أن نعمل أعمال الذي أرسلني. فالليل آت، وفيه لا يستطيع أحد أن يعمل» (يوحنا ٩: ٤). عندما تأتي ساعة الموت، نكون قد فقدنا هذه الفرصة، لأنّها لا تتكرّر. في نهاية الحياة، يقفل الربّ الباب. وإذا لم نستعد للدخول فيه، فإنّه لن يُفتح من جديد (متى ١٣: ٢٥). لا يمكن أن نعود بالحياة إلى الوراء، ولا مكان للتقمّص من أيّ نوع كان، لأن الحياة شخصيّة وكلّ شخص كائن فريد لا يتكرّر. لذلك، يعيد يسوع على مسامعنا هذه الكلمات التي وجّهها لمرتا: «أنا القيامة والحياة. من آمن بي، وإن مات، فسيحيا» (يوحنا ١١: ٢٥). وبهذا تتحقّق كلمة سفر الأمثال في العهد القديم: «مَن وجدني وجد الحياة» (الأمثال ٨: ٣٥). لا خيار أمامنا إلا الضروري الأوحد، ويسوع هو الباب والباب الأوحد.

أمّا الصيغة السلبيّة حول الطابع الحاسم للحياة على الأرض، فنجدها في قول يسوع: «يا غبيّ، في هذه الليلة

تُستردّ نفسُك منك» (لوقا ١٢: ٢٠). إنني اسمع هذه الكلمات وكأنّها موجهة شخصيّا لي، وأصوغها بهذا الشكل: «ما أعددته في حياتك، سيكون من الله أم من الشيطان؟». إنّها مسؤولية جسيمة، لأنّ كلّ ما عملناه في حياتنا سيكون موضع دينونة، يليها الحكم الأبدي: الخلاص أو الهلاك. وهذا ما تعبّر عنه الرسالة إلى العبرانيين أحسن تعبير مع ما ينطوي عليه من نتائج: «كُتب على الناس أن يموتوا مرّة واحدة، وبعد ذاك يوم الدينونة» (إلى العبرانيين ٩: ٢٧).

٥) مثال الرسل

يعرف الجميع أنّ القديس بولس عاش حياته بملئها، أولا ضدّ يسوع، ومن ثمّ من أجل يسوع، بشكل لا مثيل له. أوّلا: ضدّ يسوع، كما يقول هو نفسه: «أنا الذي كان فيما مضى مُجدِّفًا مُضطهدًا عنيفًا. ولكنّي نلتُ الرحمة لأنّي كنتُ أفعل ذلك بجهالة، إذ لم أكن مؤمنًا» (١ طيموتاوس ١: ١٣). إنّ هذا الشغف بالحياة، الذي كان موجّها أولا ضدّ يسوع، وجّهه بولس فيما بعد من أجل يسوع، فعاش فيه ومعه ومن أجله. وهذا ما يشهد له بكلماته الناريّة: «من يفصلنا عن محبّة المسيح؟ أشدّة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُري أم خطر أم سيف؟» (رومة ٨: ٣٥). وإلى المؤمنين من أهل قورنتس، الذين كانوا يتباهون بأنّهم قبلوا العماد على يد هذا أو ذاك من الرسل،

يذكّرهم بولس قائلا: «أبولس كان أم أبلس أم صخرا أم العالم أم الحياة أم الموت أم الحاضر أم المستقبل: كلّ شيء لكم، وأنتم للمسيح، والمسيح لله» (١ قورنتس ٣: ٢٢-٢٣). وهنا نلاحظ أنّنا، ما دمنا في هذه الحياة، فكلّ شيء لنا، وليس فقط الحياة، بل الموت أيضا، وليس الحاضر فحسب، بل المستقبل أيضا. ولكن الأمر الحاسم هو السؤال: كيف نعيش حياتنا، مع المسيح أم ضدّ المسيح؟ وهذا ما يؤكّده ايضا بشكل أوضح عندما يكتب لتلميذه طيموتاوس: «إذا متنا معه حيينا معه، وإذا صبرنا ملكنا معه، وإذا أنكرناه أنكرنا هو ايضا» (٢ طيموتاوس ٢: ١١-١٢). إنّ هذه الآية الأخيرة هي إمكانية مأساويّة، وتحثّنا على أن نعيش بصلاح في هذه الحياة الوحيدة التي نملكها.

كثيرًا ما يحذّرنا القديس بولس ألّا نعتبر هذه الحياة الأرضية وكأنّها الوحيدة الحقيقيّة التي نتمتّع بها كما نشاء، لأنّ ثمّة حياة أخرى. «إذا كان رجاؤنا في المسيح مقصورًا على هذه الحياة، فنحن أحقّ جميع الناس أن يُرثى لهم» (١ قورنتس ١٥: ١٩)، لأنّ الحياة لا تنتهي مع نهاية هذه الحياة. فهي تستمر بشكل آخر، وتُفضي إلى الحياة الأبديّة. لهذا، يذكّر تلاميذه بزوال الحياة الحاضرة ويحثّهم على استعمالها الاستعمال الصحيح: «أقول لكم، ايّها الإخوة، إنّ الزمان يتقاصر: فمنذ الآن ليكن الذي لهم امرأة وكأنّهم لا امرأة لهم، والذين يبكون كأنّهم لا يبكون، والذين يفرحون كأنّهم لا يفرحون، والذين

يشترون كأنّهم لا يملكون، والذين يستفيدون من هذا العالم كأنّهم لا يستفيدون حقّا، لأنّ صورة هذا العالم في زوال» (قورنتس ٧: ٢٩-٣١).

يرى القدّيس بولس أنّ الحياة فرصة وحيدة لا يحقّ لنا أن نبدّدها، ومسيرة لا تعود مرة ثانية، فيحثّ المسيحيين على أن يجعلوا من كلّ لحظة كنزا: «فهاهوذا الآن وقت القبول الحسن، وهاهوذا الآن يوم الخلاص» (٢ قورنتس ٦: ٢). كلّ الحياة «وقت مقبول». يدعونا القدّيس بولس إلى عيش التعاقب الزمنيّ لحياتنا (في اليونانية، كرونوس)، كلحظة مناسبة لمحبّة الله (في اليونانية، كايروس)، فنحوّل لحظات الحياة الحاضرة إلى كنوز أبدية في السماء. وبهذا، يذكّر القدّيس بولس بتعليم يسوع الذي يقول: «لا تكنزوا لأنفسكم كنوزًا في الأرض، حيث يُفسد السوس والعثّ، وينقب السارقون ويسرقون، بل اكنزوا لأنَفسكم كنوزًا في السماء، حيث لا يُفسد السوس والعثّ، ولا ينقب السارقون فيسرقوا. فحيث يكَون كنزك يكون قلبك» (متى ٦: ١٩-٢١). وهذا ما جعل القدّيس بولس يقول من عمق قلبه: «لي رغبة في الرحيل لأكون في المسيح» (فيلبي ١: ٢٣).

والقدّيس بولس نفسه يعرض لنا قاعدة بسيطة ولكنّها فعّالة، تعطي معنى وقيمة لحياتنا كلّها، ولكلّ أعمالها، الصغيرة والكبيرة، حيث يقول للمسيحيين من أهل قورنتس، بعد

اهتدائهم: «فإذا أكلتم أو شربتم أو مهما فعلتم، فافعلوا كلّ شيء لمجد الله» (١ قورنتس ١٠: ٣١). أتوجد قاعدة أكثر سهولة؟ ولكن هل نعمل على تطبيقها؟ إنّ القدّيسين أصبحوا كذلك، لأنّهم وضعوا هذا التعليم موضع التطبيق.

والقدّيس بطرس، من جهته، يشبه تعليمُه تعليمَ القدّيس بولس. فهو يعرف بالخبرة أنّه عاش لحظات سماويّة عند التجلّي، جعلته يقول: «رابّي، حسنٌ أن نكون ههنا» (مرقس ٩: ٥). وهذا ما جعله يعرب عن حبّه للمعلم ثلاث مرّات مقابل إنكاره ليسوع ثلاث مرّات (لوقا ٢٢: ٥٤-٥٢). أمّا بعد قيامة يسوع، على شاطئ بحيرة طبريا، فقد أعرب عن ندامته وعن حبّه الكليّ ليسوع حيث قال له ثلاث مرّات: «أنت تعلم أنّي أحبّك حبًّا شديدًا» (يوحنا ٢١: ١٥-١٧). إنّه يشعر الآن أنّه قوي، لأنّه يعتمد، لا على قواه الشخصيّة، بل على ما قاله السيد المسيح له: «ولكنّي دعوتُ لك ألّا تفقد إيمانك. وأنت ثبّت إخوتك متى رجعتَ» (لوقا ٢٢: ٣٢). والآن، فهو قادر حقّا على تثبيت إخوته، إذ يكتب للمسيحيين المُهتدين حديثًا: «فإذا كانت جميع هذه الأشياء ستنحلّ على ذلك الوجه، فكيف يجب عليكم أن تكونوا في قداسة السيرة والتقوى، تنتظرون وتستعجلون مجيء يوم الربّ» (٢ بطرس ٣: ١١-١٢).

وكذلك، فإنّ كاتب الرسالة إلى العبرانيين، الذي يعرف كيف أنّ إخوته المسيحيين يتعرّضون للأخطار والشدائد من

أجل المسيح، يحثّهم على أن يعيشوا بشجاعة وثبات يومًا بعد يوم، لأنّه يعرف أنّ الحياة لا تنتهي هنا، بل تستمرّ مع المسيح بعد الموت: «إحذروا، أيّها الإخوة، أن يكون لأحدكم قلب شرّير تردّه قلّة إيمانه عن الله الحيّ. ولكن ليشدِّد بعضكم بعضًا كلّ يوم، ما دام إعلان هذا اليوم، لئلا يقسو أحدكم بخديعة من الخطيئة. فقد صرنا شركاء المسيح، إذا احتفظنا بالثقة التي كنّا عليها في البدء ثابتة إلى النهاية» (إلى العبرانيين ٣: ١٢-١٤).

خاتمة: نشيد الحياة

نختم هذا الفصل بهذا التشيد للحياة الذي تركته لنا القديسة الأم تريزا من كالكوتا (المتوفية عام ١٩٩٧):

الحياة فرصة، اغتنمها؛ الحياة جمال، اندهش لها؛
الحياة سعادة، تذوّقها؛ الحياة حلم، إجعله حقيقة؛
الحياة تحدّ، واجهه؛ الحياة واجب، قُمْ به؛
الحياة لعبة، العبها؛ الحياة ثمينة، اعتنِ بها؛
الحياة ثروة، حافظ عليها؛ الحياة حبّ، تمتّع به؛
الحياة سرّ، اكتشفه؛ الحياة وعد، حقّقه؛
الحياة حزن، تجاوزه؛ الحياة نشيد، أنشده؛
الحياة كفاح، اقبله؛ الحياة مغامرة، جازف بها؛
الحياة سعادة، استحقّها؛ الحياة هي الحياة، دافع عنها.

الفصل الثاني

الموت

١) أسئلة ومواقف أمام الموت

لماذا التفكير بالموت والحديث عنه؟ أليس من الأفضل الصمت وعدم التفكير، أو على الأقّل تأجيل مثل هذا التفكير إلى وقت آخر، عندما نتقدّم في السن؟ أليست الحياة جميلة؟ لماذا نزعج أنفسنا بفكرة أنّ حياتنا ستنتهي يومًا ما؟ نتجنّب فكرة الموت، لأن مثل هذا التفكير يتمّ على اساس الاعتقاد أنّ كل شيء ينتهي. وهذا، بالذات، الخطأ الكبير والخدعة الكبرى. ليس من الصحيح أنّ كلّ شيء ينتهي بالموت. الحقيقة هي أنّ ما ينتهي بالموت هو عيشنا في الزمن، ليبدأ شكل جديد من الحياة: الحياة الأبديّة. إنّ الخوف الناجم عن التفكير فبالموت ليس أنّ حياتنا ستنتهي يوما ما، لأنّ الكلّ يعرف ذلك على وجه التأكيد، ولا أحد يفلت من هذه الحقيقة، لا ماضيا ولا حاضرا ولا مستقبلا. ما يخيفنا، في الحقيقة، هو أنّنا لا نعرف تماما، في ضوء العقل البشري لحده، ما يحدث بعد ذلك وكيف.

إذا ما توقفنا عند المؤمنين وغير المؤمنين، يمكن أن نحصر المواقف أمام الموت بأربعة مواقف اساسية:

١) الصمت وعدم الاكتراث: الموت واقع بديهي لا يمكن إنكاره، ولكنّه موضوع يجب ألا نثيره وأن نفكّر به أو نتكلّم عنه. وحتى التعابير التي نستعملها لدى ذكره هي تعابير مموّهة وملطّفة: زوال، غياب، فقدان، مصيبة، قدر، أو – وهي تعابير مسيحية – العودة إلى بيت الآب، العبور إلى الحياة الأبدية، الصعود إلى السماء. وهكذا، فإنّ كلمة «الموت» غابت تقريبا عن الخطاب البشري، ويتمّ تجنّبها، فنستبدلها بكلمات أو تعابير أخرى. بالإضافة إلى ذلك، الموت هو دائما موت الآخرين، وهذا ما لا يتعلّق بي حاليا، ولا أريد أن افكّر به.

٢) الخوف والرفض: يشعر المرء بالخوف أمام الموت، لا خوفا من الموت بحدّ ذاته، بما إنّه لا يمكن تجنبّه، ولكنّ الخوف هو ممّا ينتظرنا بعد الموت، وهو ما نجهله تماما ولا يمكن اختباره. كيف سيكون عالم ما بعد الموت؟ هل ينتهي كلّ شيء؟ هل يعني ذلك أنّ كلّ شيء لا فائدة منه؟ أم أنّ العالم الآتي هو بالفعل عالم جميل وملء الحياة الذي بحثنا عنه دائما؟ وإذا ما فكرنا في الأسوأ، أيّ حياة عذاب بدون إمكانية العودة إلى الوراء، فعندئذ يأتي موقف الرفض. لماذا يجب أن أموت؟ لماذا هذا المرض الذي لا يمكن الشفاء منه؟

٣) الرؤية الملحدة أو القدرية: «الموت وهم، خيال، لا شيء، صفر. فهو يخطف بدون اي شواذ، وبالتالي يلغي نفسه بنفسه. إنّ موتنا هو موت الموت» (فويرباخ، الموت والخلود، الترجمة

الإيطالية، ص ٧٧).

٤) الرؤية الدينية: تسعى الديانات إلى إعطاء جواب على مختلف الأسئلة التي تطرحها الحياة والموت والحياة بعد الموت. بالنسبة إلى المؤمنين، الموت هو عبور إلى حياة أخرى دائمة وأبديّة. وهذه الحياة الأبديّة هي نتيجة أو ثواب للحياة الأرضيّة، سعادة، إذا كانت الحياة صالحة، أو تعاسة، إذا كانت الحياة طالحة. بالنسبة إلى المسيحي، الذي يعيش بحسب الإنجيل، الموت هو لحظة اللقاء الأسمى والنهائي بالله والحياة الأبدية معه.

بالنسبة إلينا، نحن المسيحيين، فإنّ الكتاب المقدس، اي كلمة الله الموحى بها، هو المصدر الذي نعود إليه، حتى نجد أجوبة لتساؤلاتنا حول الموت والحياة الأخرى. إنّ يسوع، كلمة الله الذي صار بشرا، تكلّم عن الموت، وواجه الموت، وغلب الموت، وقام من القبر، وفتح أبواب الحياة الأبدية لجميع من يؤمنون به، وأيضا لجميع الذين يعيشون بحسب وصاياه، ولو لم يعرفوه. يشجّع يسوع الرسل الإثني عشر بهذا الوعد الثابت: «إنّي ذاهب لأُعدّ لكم مُقامًا. وإذا ذهبت وأعددت لكم مُقاماً، أرجع فآخذكم إليّ» (يوحنا ١٤: ٢).

٢) الموت: نظرة لاهوتية

أمام الموت، ثمّة سؤالان أساسيان يطرحهما كلّ واحد على نفسه: ما هو الموت؟ من أين يأتي ولماذا؟ إنّ الكتاب

المقدس، بعهديه القديم والجديد، يطرح أجوبة متمايزة، أخذت مجراها شيئا فشيئا طيلة تاريخ الخلاص. أمّا يسوع، الحقيقة الأسمى، فإنّه يقدم لنا أجوبة نهائية وأبدية.

– ما هو الموت؟

يصف **العهد القديم** الموت على أنّه نقيض الحياة. فالحياة هبة من الله وتشمل ملء الخيرات، خصوصا الشركة مع الله والشركة مع البشر. أمّا الموت، فهو شرّ، لأنّه ينزع منا جميع هذه الخيرات، ويفصلنا عن الشركة مع الآخرين. ثمّة مزمور يصف الموت على أنّه عدم إمكانية الاتصال بالله: «أللأموات تصنع العجائب أم يقوم الأشباح ليحمدوك؟ أفي القبر يحدَّث برحمتك وفي الهاوية بأمانتك؟ أفي الظلمة تُعرَف عجائبك وفي أرض النسيان برّك؟» (مزمور ٨٨: ١١–١٢؛ وايضا المزمور ٦: ٥ والمزمور ٣٠: ١٠). ولكن، ثمة مزامير أخرى فيها نظرة أكثر روحيّة وملأى بالأمل، وتنيرها الثقة بصلاح الله الرحيم، وهي المزامير ١٦: ٤٩، ٧٣. في المزمور ١٦، يتّكل المصلّي كليًّا على الربّ في الحياة وفي الموت، فيقول: «الربّ كأسي وحصة ميراثي، أنت الضامن لنصيبي... لذلك فرح قلبي وابتهجت نفسي حتى جسدي استقرّ في أمان، لأنّك لن تترك في مثوى الأموات نفسي ولن تدع صفيّك يرى الهوّة. ستبيّن لي سبيل الحياة. أمام وجهك فرح تام وعن يمينك نعيم على الدوام» (المزمور ١٦: ٥. ٩–١١).

وفي العهد القديم، في سفر المكابيين، نجد أمثلة جميلة من القوة والشجاعة أمام الموت، التي يتمّ احتمالها حبًّا لله ولشريعته. تعبّر هذه الأمثلة عن الإيمان بأنّ الموت ليس الفقدان النهائي للحياة، بل الباب المؤدي للحياة الأبدية مع الله لمن يظلّ أمينا على وصاياه. ورائع هو مثال استشهاد العازر المتقدّم في السنّ، الذي فضّل الموت على مخالفة شرائع الله المقدّسة: «ولمّا أشرف على الموت من الضرب، تنهّد وقال: يعلم الربّ، وهو ذو العلم المقدّس، أنّي، وأنا قادر على التخلّص من الموت، أكابد في جسدي عذاب الضرب الأليم، وأمّا في نفسي فإنّي أحتمل ذلك مسرورا لأنّي أخاف الله» (٢ مكابيين، ٦: ٣٠). وكذلك، فإنّ كلمات أمّ الأبناء السبعة، الحافلة بالإيمان، والتي وجّهتها لابنها الصغير لتشجيعه على مواجهة الموت شهيدا: «أسألك يا ولدي أن انظرْ إلى السماء والأرض، وإذا رايت كلّ ما فيهما، فاعلم أن الله صنعهما من العدم، وأنّ جنس البشر هو كذلك. فلا تخفْ من هذا الجلاّد، بل كن جديرا بإخوتك واقبل الموت لألقاك مع إخوتك بالرحمة» (٢ مكابيين، ٧: ٢٨-٢٩).

أمّا العهد الجديد، من جهته، فإنّه يواجه واقع الموت، على أنّه نهاية الحياة الأرضية، بما فيها من أفراح وأحزان، وكذلك نهاية محنة الأمانة لله أو خيانته. ولكنّ نور المسيح القائم من بين الأموات، الذي غلب الموت غلبة نهائية، فإنّه يضفي نورا جديدا على هذا العبور الإجباري من الوجود الأرضي إلى

الحياة الأبدية. إنّ الإيمان يحرّر المسيحي من الهلع أمام الموت، لأنّ الرجاء يفيض في المؤمن الصفاء والثقة بأنّ هذا العبور هو عبور من حياة هشّة وغير كاملة إلى حياة كاملة وكلّية. وهذا لا يعني أنّ المرء لم يعد ينظر إلى الموت بما فيه من جديّة وماساوية. إنّنا نعرف أنّ الخطيئة هي التي جعلت الموت كما نختبره اليوم. لو لم تكن الخطيئة، لكان العبور إلى الحياة الأبدية هادئا، وكأنّه نوع من الرقاد في هذا العالم لنستيقظ في الله. فالخطيئة جعلت من الموت أمرا مؤلما ومأساويا. لا أحد يقف محايدا أمام الموت. حتى يسوع عاش مأساة الموت، موته هو وموت غيره.

– من اين يأتي الموت؟

هذا هو السؤال الذي لا يزال المرء يطرحه: لماذا الموت؟ من أين يأتي؟ لماذا هذه النهاية للإنسان؟ ألم يكن بالإمكان أن تكون الأمور مختلفة؟ ألم يكن بالإمكان أن تنتهي الحياة بشكل مختلف؟ إذا كان الله واهب الحياة، فلماذا ينزعها؟ إذا كان الله إله الحياة، لماذا يسمح بالموت؟ إنّ جواب الكتاب المقدس على هذه الأسئلة واضح، ويتلخص في نقطتين: الأولى هي أنّ الله حياة أبدية وخالدة، وخلق الإنسان للحياة، وليس للموت. والثانية هي أن الموت دخل العالم بسبب خطيئة الإنسان. هاتان الحقيقتان، يعرضهما العهد القديم والجديد بوضوح.

في العهد القديم، يبحث سفر الحكمة، في فصوله الأولى، في

المصير البشري ويحثّ البشر على اتّباع طرق الربّ التي تقود إلى الخلاص، لا طرق الخطيئة التي تقود إلى الهلاك والموت. وبهذا الصدد، وبشأن أصل الموت، يقول: «لا تسعَوا إلى لموت بتضليل حياتكم، ولا تجلبوا عليكم الهلاك بأعمال أيديكم، لأنّ الله لم يصنع الموت، ولا يُسرُّ بهلاك الأحياء. فإنّه خلق كلّ شيء لكي يكون وإنّ خلائق الله مفيدة وليس فيها سمٌّ مُهلك، ولا ملك لمثوى الأموات على الأرض، لأنّ البرّ خالد» (الحكمة ١: ١٢-١٥). الحقيقة هنا واضحة: الله يخلق، ولا يدمِّر. والله هو واهب الخيرات، ولا يمكن أن يكون أصل الشرور. إنّ الموت، الذي هو شرّ، لا يمكن أن يأتي من الله. إنّه يأتي فقط من شرّ الإنسان.

ثمّة مقطع آخر من السفر نفسه يضيف عنصرا آخر بخصوص أصل الموت، وهو عمل الشيطان الفاسد، عدوّ الله. يقول: «لكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم، فيختبره الذين هم من حزبه» (حكمة ٢: ٢٤). وهذا ما يعود بنا إلى تجربة الحيّة لآدم وحواء، ومن ثمّ إلى وقوعهما في الخطيئة بسبب عصيانهما لأمر الله بأن لا يأكلوا من الشجرة، وهي الخطيئة التي أدّت إلى عقابهما بالموت، بحسب الكلمة التي وجهها الله لآدم: «تعود إلى الأرض، فمنها أُخذتَ لأنّك تراب وإلى التراب تعود» (تكوين ٣: ١٩). بعد الموت الروحي، الذي هو الخطيئة، التي تفصل الإنسان عن الله، يأتي الموت الجسدي، الذي هو انفصال الجسد عن النفس. فالموت، إذًا، عقاب للخطيئة.

يعود **العهد الجديد** إلى هذه الحقائق. اثناء جدال مع اليهود، يشير يسوع إلى الشيطان، ويصفه بأنّه كذّاب وقاتل: «كان منذ البدء قتّالا للناس» (يوحنا ٨: ٤٤). إنّ هذا التعبير يعود بنا إلى البدء، إلى آدم وحواء، إذ قتل إبليس الإنسان، عندما جرّه إلى الخطيئة وإلى نتائجها، أي الموت. ويسوع، الذي هو آدم الجديد، فهو، بطاعته للآب، «حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم» (يوحنا ١: ٢٩)، حتى الموت على الصليب، الذي به غلب الموت بشكل نهائي وأعاد لنا الحياة الأبدية.

أمّا القدّيس بولس، فإنّه يصف لنا بطريقة لاهوتية هذه العملية، أي الهلاك والخلاص. يقول: «فكما أنّ الخطيئة دخلت في العالم عن يد إنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت، وهكذا سرى الموت إلى جميع الناس لأنّهم جميعا خطئوا» (رومة ٥: ١٢). بهذه الكلمة، يؤكّد القدّيس بولس حقيقتين مترابطتين: الأولى هي أنّ خطيئة آدم هي أصل الموت، والثانية هي أن الموت ينقل إلى سلالة آدم، لأنّ حالة الخطيئة التي وجد فيها انتقلت إلى ذريّته. وهذه هي الحقيقة التي يؤكّدها في الآية اللاحقة في الرسالة إلى أهل رومة: «إنّ الخطيئة دخلت في العالم عن يد إنسان واحد» (رومة ٥: ١٢). وفي آية أخرى، يقول: «إنّ شوكة الموت هي الخطيئة» (١ قورنتس ٥٦). وهذا تدعوه الكنيسة «الخطيئة الأصلية» أو «خطيئة أبوينا الأولين».

٣) الموت في موقف يسوع وتعاليمه

أمام موت الآخرين، يتأثّر يسوع ويتعاطف: «فلمّا اقترب من باب المدينة (نائين)، إذا ميت محمول، وهو ابن وحيد لأمّه وهي أرملة. وكان يصحبها جمع كثير من المدينة. رآها الربّ، أخذته الشفقة عليها، وقال لها: لا تبكي!» (لوقا ٧: ١٢-١٣). وفي بيت عنيا، علم يسوع بموت صديقه العازر. وبينما تبكي أختاه مريم ومرتا، يلفت إنجيل يوحنا النظر إلى مشاعر يسوع الإنسانيّة، من التأثر، إلى الاضطراب، إلى البكاء، التي يصفها الإنجيل من خلال الظروف والصفات والأفعال التي تتّسم بالكثافة: «فلمّا رآها يسوع تبكي ويبكي معها اليهود الذين رافقوها، جاش صدره، واضطربت نفسه، وقال: أين وضعتموه؟، قالوا له: يا ربّ، تعال فانظر. فدمعت عينا يسوع» (يوحنا ١١: ٣٣-٣٥)

أمام الموت، يتعاطف يسوع، ولكنّه يشير، في الوقت عينه، إلى معناه الإنسانيّ، على أنّه حدث لا يمكن أن يكون له الانتصار النهائي، لأنّ الذهن البشري يرفض فكرة الفناء النهائي ويصبو إلى حياة أبديّة. لهذا، فإنّ يسوع يبيّن مسبقا، من خلال بعض معجزات إقامة الموتى، ما يجعل الانتصار نهائيًا على الموت في آخر الأمر. في الحقيقة، لا يبادر يسوع إلى إقامة جميع الموتى في كل زمان ومكان من غير تمييز، بل يقوم بثلاث معجزات إقامة موتى، لكي تكون علامة للانتصار النهائي

على الموت. يعيد يسوع إلى الحياة ثلاثة اشخاص، بمختلف أوضاعهم الاجتماعية وأعمارهم: ابنة يائيرس، ولها من العمر ١٢ سنة: «طليتا قومي!، أي: يا صبيّة اقول لكِ: قومي» (مرقس ٥: ٤١؛ وايضا لوقا ٨: ٤١)؛ ابن أرملة نائين: «يا فتى، اقول لك: قُمْ!» (لوقا ٧ ١٤)؛ وأخيرا، صديقه العازر: «يا لعازر، هلمّ فاخرج!» (يوحنا ١١: ٤٣). إنّه يجترح هذه المعجزات ليبيّن أنّ الموت لن يتغلّب على الإنسان، بل سيُهزم هزيمة نهائية، وليبيّن بشكل خاصّ أنّه هو الحياة ويعيد إلى الحياة: «أنا القيامة والحياة. من آمن بي، وإن مات، فسيحيا» (يوحنا ١١: ٢٥). «فكما أنّ الآب له الحياة في ذاته، فكذلك أعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته» (يوحنا ٥: ٢٦). ولهذا، يحثّ يسوع تلاميذه على أن يخافوا موت الروح اكثر من موت الجسد: «لا تخافوا الذين يقتلون الجسد، ولا يستطيعون قتل النفس، بل خافوا الذي يقدر على أن يُهلك والجسد جميعا في جهنم» (متى ١٠: ٢٨).

ولكنّ يسوع كثيرا ما يوجّه أذهاننا إلى موته هو. وهذا ما يقوم به بطريقتين: من ناحية، عندما يضع نصب عينيه «ساعة» عودته إلى الآب، ومن ناحية أخرى، عندما يتنبّأ لتلاميذه ثلاثة مرّات بنهايته القريبة، بما فيها من موت وقيامة. وهذا ما يبرز بشكل خاصّ في إنجيل يوحنا الذي يبيّن كيف أنّ فكرة «ساعة يسوع» وحلولها ترافق كلّ حياته، منذ تجلّيه المجيد في قانا حتى تجلّيه المؤلم في آلامه وموته. في قانا، في بداية حياته العلنية، يشير

إلى هذه الساعة في جوابه لأمّه مريم، التي طلبت منه التدخّل لصالح أهل العروسين الذين نقص عندهم الخمر: «لم تأتِ ساعتي بعد» (يوحنا ٢: ٤). ومع أنّ هذا الجواب يعني رفضًا للتدخّل، غير أنّه يغير الماء إلى خمر: «هذه أولى آيات يسوع أتى بها في قانا الجليل. فأظهر مجده فآمن به تلاميذه» (يوحنا ٢: ١١).

أمّا قمّة «ساعته»، فبدأت في الثلاثية الفصحية، التي تشكّل عملا خلاصيّا واحدا: العشاء الأخير، الموت والقيامة. ويوحنا هو دائما اللاهوتي صاحب الحدس، الذي يقرأ ما يجول في ذهن يسوع، عندما يؤكّد في بداية روايته للعشاء الفصحي: «قبل عيد الفصح، كان يسوع يعلم بأن قد أتت ساعة انتقاله عن هذا العالم إلى أبيه، وكان قد أحبّ خاصته الذين في العالم، فبلغ به الحبّ لهم إلى أقصى حدوده» (يوحنا ١٣: ١). لهذا، يوجّه يسوع صلاته الأخيرة إلى الآب التي تبدأ بهذه الكلمات: «يا أبتِ، قد أتت الساعة» (يوحنا ١٧: ١). كيف استعدّ يسوع لهذه الساعة وانتظرها؟

من ناحية، يشعر بالاضطراب والخوف، لأنّه يدرك ما ينطوي عليه الموت من ألم وانفصال. بكثير من الواقعية، تروي الأناجيل أنّ يسوع، أمام الآلام والموت، «جعل يشعر بالرهبة والكآبة» (مرقس ١٤: ٣٣)، وقال: «نفسي حزينة حتى الموت، امكثوا هنا واسهروا معي» (متى ٢٦: ٣٨). الكآبة والخوف والرهبة: هذه هي المشاعر التي ألَمّت بيسوع بقوة، وتدلّ،

بشكل من الأشكال، على الرفض أمام دراما الموت، أو على الأقل أمام الموت الموجع الذي ينتظر يسوع. من ناحية أخرى، يقبل يسوع مشيئة الآب قبولا كاملا، لعلمه أنّ هذا القبول هو البرهان الأسمى لحبه للآب وللبشر: «يا أبتِ، إن شئتَ فاصرف عنّي هذه الكأس... ولكن لا مشيئتي، بلَ مشيئتك» (لوقا٢٢: ٤٢). والإنجيلي يوحنا، من ناحيته، يذكر مشهدا مشابها للنزاع في بستان الزيتون، وذلك عندما يصف مشاعر الابن، في حواره مع الآب، ويتساءل حول خاتمته، بما فيه من مرارة، ويبدو وكأنّه يريد تجنّبه. بكلمات قليلة، يصف الاضطراب أوّلًا، ومن ثمّ قبول الموت الخلاصيّ: «الآن نفسي مضطربة، فماذا أقول؟ يا أبتِ، نجّني من تلك الساعة، وما أتيت إلا لتلك الساعة» (يوحنا ١٢: ٢٧). يقبل يسوع، عن حبّ، الموت الناجم عن خطيئة الإنسان، لكي ينتصر نهائيّا على الموت والخطيئة، ويفتح بذلك أبواب الحياة للبشرية المُخلّصة. يقول القدّيس أفرام إنّ الموت يقتل حياة يسوع الطبيعية، ولكنّه، في الوقت عينه، يُقتل بقوة يسوع الإلهية.

ممّا لا شكّ فيه أنّ الموت لم يكن بالنسبة إلى يسوع، وهو الإنسان الحقّ (بالإضافة إلى كونه إلها حقًّا)، خبرة سهلة، لا بل إنّ جميع حيثيات آلامه ونزاعه على الصليب، التي تصفها الأناجيل بتفاصيلها، تبيّن إلى أي حدّ كان موجعا لجسده ونفسه. وثمّة مقطع من الرسالة إلى العبرانيين يبرز هذا الجانب

الموجع، إذ يستعمل تعابير قوية، ويقول: «وهو الذي في أيام حياته البشريّة رفع الدعاء والابتهال بصراخ شديد ودموع ذوارف إلى الذي بوسعه أن يخلّصه من الموت، فاستُجيب لتقواه. وتعلّم الطاعة، وهو الابن، بما عانى من الألم. ولما بُلِغ به إلى الكمال، صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبديّ» (إلى العبرانيين ٥: ٨-٩). يمكن القول إنّ لا أحد احتمل موتا كموته.

ومع ذلك، فإنّ ألم الجسد والروح الذي احتمله يسوع، لم يطغَ على طاعته لمشيئة الآب ومخطّطه الخلاصي: «أطاع حتى الموت، موت الصليب» (فيلبي ٢: ٨)، وهو المخطّط الذي تنبّأت به الكتب المقدّسة ويجب أن يتمّ. ثمّة تناغم تام بين مشيئة الآب ومشيئة يسوع، اللتين تجمعهما روح الحبّ. وهذا ما يقوله يسوع نفسه بوضوح: «إنّ الآب يحبّني لأنّي أبذل نفسي لأنالها ثانية. ما من أحد ينتزعها منّي، ولكنّي أبذلها برضاي. فلي أن ابذلها ولي أن أنالها ثانية، وهذا أمر تلقّيته من أبي» (يوحنا ١٠: ١٧-١٨). فموته، إذا، ينيره تماما حبّه للآب ومخطّطه الخلاصيّ. وهذا ما يقوله بوضوح لتلميذي عمّاوس، اللذين كانا يشعران بالارتباك والحزن لموت المعلّم: «يا قليلي الفهم وبطيئي القلب عن الإيمان بكلّ ما تكلّم به الأنبياء. أما كان يجب على المسيح أن يعاني تلك الآلام فيدخل في مجده؟» (لوقا ٢٤: ٢٥-٢٦). وهذا ما يكرّره لاحقا ايضا على مسمع من

الأحد عشر والآخرين المجتمعين: «كُتب أنّ المسيح يتألّم ويقوم من بين الأموات في اليوم الثالث» (لوقا ٢٤: ٤٦).

يسوع مثال لنا في كلّ شيء: في الحياة وفي الممات! في الحياة، لأنّه معلّمنا، ودليلنا، ومثالنا في التفكير، والقول والعمل. وفي الممات، لأنّه ظهر أنّه مثالنا، في هذه اللحظة الحاسمة، التي فيها أسلم روحه لله الآب. لهذا، يحثّ القدّيس بطرس جميع المسيحيّين إلى التشبّه بالمسيح، عندما يقول: «فلهذا دُعيتم، فقد تألّم المسيح ايضًا من أجلكم وترك لكم مثالا لتقتفوا آثاره. إنّه لم يرتكب خطيئة ولم يوجد في فمه غشّ. شُتم ولم يردَّ على الشتيمة بمثلها. تألّم ولم يُهدِّد أحدًا، بل أَسلم أمره إلى مَن يحكم بالعدل، وهو الذي حمل خطايانا في جسده على الخشبة، لكي نموت عن خطايانا فنحيا للبرّ. وهو الذي بجراحه شُفيتم» (١ بطرس ٢: ٢١-٢٤).

نعم، بجراحه شُفينا. هذا ما تعبر عنه الرسالة إلى العبرانيين تعبيرا رائعا: «ولكنّ ذاك الذي «حُطّ قليلا دون الملائكة، أعني يسوع، نشاهده مُكلّلا بالمجد والكرامة، لأنّه عانى الموت، وهكذا بنعمة الله ذاق الموت من أجل كلّ إنسان» (إلى العبرانيين ٢: ٩). أمّا ثمرة موت يسوع من أجلنا، فهي خلاصنا. في موته حياتنا. كنّا أمواتا في الخطيئة، لكنّ المسيح انتصر على موتنا بموته عن حبّ، كما انتصر على الخطيئة التي أدّت بنا إلى الموت. «مات من أجل جميع الناس» (٢ قورنتس ٥: ١٤)،

بدون تمييز، وسكب دمه «من أجل جماعة الناس لغفران الخطايا» (متى ٢٦: ٢٨). إنّها قصّة فوق كلّ جمال وفوق كلّ عظمة، تفوق عقولنا وإدراكنا! إنّه سرّ الحب اللامتناهي، الذي يجعل القدّيس بولس يهتف: «أمّا الله، فقد دلّ على محبّته لنا بأنّ المسيح قد مات من أجلنا إذ كنّا خاطئين... فإن صالحنا الله بموت ابنه ونحن أعداؤه، فما أحرانا أن ننجو بحياته ونحن مصالحون!» (رومة ٥: ٨. ١٠). وهذا ما حمل بعض آباء الكنيسة واللاهوتيين، خصوصا في الشرق المسيحي (ديونيسيوس، يوحنا كريويستموس، نقولا كابازيلاس) على وصف ذلك الحبّ الذي جعل الله يسلّم ابنه للموت لخلاص الخطأة، بـ «الحبّ المجنون».

٤) موقف القدّيس بولس وتعليمه

كثيرا ما يتحدّث القدّيس بولس عن موته. فهو يذكر المخاطر الكثيرة التي مرّ بها وعرّضته مرارا «لأخطار الموت» (٢ قورنتس ١١: ٢٣). وعندما وُجد في رومة سجينا «في سبيل المسيح» (فيلبي ١: ١٣)، راح يوجّه فكره إلى نهايته القريبة. وفي صميم قلبه، يشعر بالصراع بين أن يبقى بين إخوته المسيحيين ورغبته الشخصية في أن يكون مع المسيح في السماء: «فالحياة عندي هي المسيح، والموت ربح. ولكن، إذا كانت حياة الجسد تمكّنني من القيام بعمل مثمر، فإنّي لا أدري ما أختار. وأنا في

نزاع بين أمرين: فلي رغبة في الرحيل لأكون مع المسيح وهذا هو الأفضل جدّا جدّا، غير أن بقائي في الجسد اشدّ ضرورة لكم» (فيلبي ١: ٢١-٢٤). لا يكترث بولس لنفسه ولا بنهايته، كما يشهد ذلك هو نفسه: «فإنّي أنتظر بفارغ الصبر وأرجو ألا أخزى ابدًا، بل لي الثقة التامّة بأنّ المسيح سيُمجَّد في جسدي الآن وفي كلّ حين، سواء عشتُ أو متُّ» (فيلبي ١: ٢٠). فهو يسلّم أمره للربّ ويقبل أن تتمّ مشيئته.

إنّ هذا الصفاء أمام الموت يظهر بشكل رائع في نصّ من الرسالة الثانية إلى طيموتاوس، حيث يقول: «فقد اقترب وقت رحيلي. جاهدتُ جهادًا حسنًا وأتممتُ شوطي وحافظت على الإيمان، وقد أعدّ لي إكليل البرّ الذي يجزيني به الربّ الديان العادل في ذلك اليوم، لا وحدي، بل جميع الذين اشتاقوا ظهوره» (٢ طيموتاوس ٤: ٦-٨). بهذه الكلمات، عبّر القدّيس بولس عن إيمانه، ورجائه، ومحبته للمسيح يسوع، الذي سيراه وجهًا لوجه، في ساعة موته، حيث يعتبر نفسه «قربانا للربّ» (فيلبي ٤: ٦)، ومن ثمّ، في الدينونة الأخيرة، لدى عودة السيّد المسيح ثانية. وما يشعر به بولس يؤكّده ايضا لتلاميذ المسيح إذا ظلوا أمناء للإنجيل: «إذا كنّا قد متنا مع المسيح، فإنّنا نؤمن بأنّنا سنحيا معه» (رومة ٦: ٨).

مع اعترافه بواقع الموت والخوف منه، يحثّ القدّيس بولس المسيحيين على النظر إلى ما بعد الموت، وأن يتحلّوا

بالإيمان بالقيامة، وهي هزيمة الموت النهائية والمشاركة في الحياة الأبدية مع الله. يقول لأهل قورنتس، الذين كانوا يتساءلون حول الحياة بعد الموت، مطمئنًا إيّاهم: «ونحن نعلم أنّه إذا هُدم بيتنا الأرضيّ، وما هو إلا خيمة، فلنا في السماوات مسكن من صنع الله، بيت أبدي لم تصنعه الأيدي... والذي أعدّنا لهذا المصير هو الله الذي أعطانا عربون الروح. لذلك فلمّا كنّا واثقين في كلّ حين، على علمنا بأنّنا، ما دمنا في هذا الجسد، نحن في هجرة عن الربّ، لأنّنا نسير في الإيمان لا في العيان... فنحن إذًا واثقون، ونرى من الأفضل أن نهجر هذا الجسد لنقيم في جوار الربّ» (٢ قورنتس ٥: ١. ٥-٨).

وإلى أهل قورنتس أنفسهم يعلن صرخة الانتصار على الموت: «قد ابتلع النصر الموت. فأين يا موت نصرك؟ وأين يا موت شوكتك؟ إنّ شوكة الموت هي الخطيئة، وقوة الخطيئة هي الشريعة. فالشكر لله الذي أتانا النصر عن يد ربّنا يسوع المسيح!» (١ قورنتس ١٥: ٥٤-٥٧). الموت لا يخيف المؤمن، لأنّه يفتح الأبواب للقاء المسيح المخلص والثالوث الأقدس. ولكنّ هذا الانتصار والمجد الأخيرين لا يُمنحان إلا للمسيحي الذي يجاهد الجهاد الحسن، وبعون الله يغلب الشيطان والخطيئة. وهذه هي الحياة التي يسعى القديس بولس والرسل إلى عيشها، كما يقول إلى أهل رومة: «إنّنا من أجلك نعاني الموت طوال النهار ونعدّ غنمًا للذبح. ولكنّنا في ذلك فزنا فوزًا مبينًا،

بالذي أحبّنا. وإنّي واثق أنّه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة ولا اصحاب رئاسة، ولا حاضر ولا مستقبل، ولا قوّات، ولا علّو ولا عمق، ولا خليقة أخرى، بوسعها أن تفصلنا عن محبّة الله التي في المسيح يسوع ربّنا» (رومة ٨: ٣٦-٣٩). ويضيف يوحنا الرسول: «نحن نعلم أنّنا انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأنّنا نحبّ إخوتنا. مَن لا يحبّ بقي رهن الموت» (١ يوحنا ٣: ١٤).

٥) الرؤية المسيحية للموت

إنّ الموت حقٌّ على كلّ إنسان، ولا يفلت منه أحد: «يموت جميع الناس في آدم» (١ قورنتس ١٥: ٢٢). بشكل من الأشكال، يبدأ الموت منذ بداية الحياة. عندما يولد المرء، كما يقول سفر أيوب، تكون «أيامه محدودة، وعدد شهوره معيّنًا عندك، وقد قضيت له أجلا لا يتعداه» (١٤: ٥). ولكنّ هذا الواقع يجب ألا يؤدّي إلى الخمول والقدريّة والتشاؤم، بل يجب أن يدفع المسيحي إلى عيش حياته بأفضل طريقة ممكنة، في خدمة الله وخير نفسه وخير الآخرين وجميع البشر. إنّ كلّ عمل نقوم به، خيرا كان أم شرًّا، سيخضع لحكم الله العادل. وفي هذا المجال، يقول المجمع الفاتيكاني الثاني: «والكنيسة إلى ذلك تعلّم أنّ ترجّي الحياة الأخرى لا يذهب بشيء من أهميّة لمهامّ الأرضيّة، بل بالحري يوفّر دواعي جديدة للقيام بها. وخلافًا لذلك فإذا خلا الدعم الإلهي ورجاء الحياة الأبديّة

تجرّحت كرامة الإنسان تجرّحًا بليغًا، كما يجري ذلك غالبًا في هذه الأيام، وفقد لغز الحياة والموت والخطيئة والألم حلّه، وكَثُر سقوط البشر في وهدة القنوط» (الكنيسة في عالم اليوم، ٢١).

لا أحد يعلم (إلا بوحي خاصّ من الله) يوم موته. من الطبيعي أن يتمنّى كلّ إنسان أن يموت بعد أن شبع من السنوات، ولكنّ الموت يمكن أن يفاجئنا في كلّ عمر ولأسباب كثيرة وباشكال متعدّدة وفي ظروف متنوّعة، كما يشير إلى ذلك ما نختبره كلّ يوم. لذلك، يحثّنا يسوع على أن نكون دائمي الاستعداد لمجيئه: «اسهروا إذًا، لأنّكم لا تعلمون أيّ يوم يأتي ربّكم» (متى ٢٤: ٤٢). وهذا لا يعني أن نعيش في حالة من الخوف والقلق واللجوء إلى الانعزال والصلاة، بل يعني أن نعيش كلّ يوم من أيام حياتنا في الصلاح، فنتنعم بالخيرات التي يوفّرها لنا الربّ ونشكر الله عليها، ونمارس وصاياه ونتغلب على الشرّ، ونعمل الخير لجميع الناس ونحمل أثقال بعضنا البعض، ونلتزم في المجتمع لنعزّز فيه التقدّم الحقيقي للبشرية، ونكافح الشرّ ونشهّر به حيثما وُجد. بهذه الطريقة، نتعلّم كلّ يوم كيف نموت، كما يعلّم القدّيس بولس: «لماذا نتعرّض للخطر كلّ حين؟ أشهد، أيّها الإخوة، بما لي من فخر بكم في ربّنا يسوع المسيح، أنّي أواجه الموت كلّ حين» (١ قورنتس ١٥: ٣١). هكذا يذهب المسيحي لملاقاة الموت بإيمان، وفي فرح الرجاء بأنّ الربّ سيستقبله بين ذراعيه، ويغفر له خطاياه

ويقبل ذبيحة حياته. بهذا المعنى، يعلّمنا القدّيس بولس: « إذا حييتم حياة الجسد تموتون، أمّا إذا أمتّم بالروح أعمال الجسد فستحيون» (رومة ٨: ١٣).

من أجل كلّ هذا، لا تُحبِط فكرةُ الموت، مهما كان موجعا ومحزنا، المسيحي، ولا تجعله يعيش في الخوف والقلق، لأنّه يعرف أنّ الموت ليس النهاية، بل هو عبور إجباري لحياة أخرى. تعبّر مقدّمة قداس الموتى عن هذه الرؤية أحسن تعبير: «إنّ حياة المؤمنين بك، يا ربّ، لا تزول بل تتبدّل، وبعد انقضاء هذه الغربة الأرضيّة، ينالون مقرًّا ابديًّا في السماء» (كتاب القدّاس). يسوع نفسه يدعو موته عودةً إلى الآب: «خرجتُ من لدن الآب وأتيت إلى العالم. أمّا الآن، فإنّي أترك العالم وأمضي إلى الآب» (يوحنا ١٦: ٢٨). وهذا ما فهمه يوحنا الإنجيلي تمام الفهم، عندما يؤكّد في إنجيله: «قبل عيد الفصح، كان يسوع يعلم بأن قد أتت ساعة انتقاله عن هذا العالم إلى أبيه، وكان قد أحبّ خاصّته الذين في العالم، فبلغ به الحبّ لهم إلى أقصى حدوده» (يوحنا ١٣: ١). يمكن القول إنّنا، نحن ايضا، عندما وُلدنا، خرجنا من فكر الآب لنعيش في هذا العالم، وبالموت نعود إلى الآب لنعيش في «سموات جديدة وأرض جديدة» (٢ بطرس ٣: ١٣). هذه هي الآفاق التي يفتحها القدّيس امبروزيوس أمام الموت: «إنّ الموت هو العبور الشامل. يجب أن تمرّ بشجاعة. فالعبور هو، في آخر الأمر، من الفساد إلى عدم الفساد، من الفناء إلى

الخلود، من الاضطراب إلى الراحة. لا تضطرب إذًا من كلمة الموت، بل ابتهج لخيرات هذا العبور» (في الميتة الصالحة، ٤، ١٥).

إذا اعتبرنا الموت من هذه الزاوية، فإنّ موتنا يضيئه نورُ المسيح. لا يموت المسيحي لوحده قط، ولو أنّ الجميع تخلّوا عنه، لأنّ المسيح يقف دائما بجانبه. إنّ كلمة يسوع: «هاءنذا معكم طوال الأيام إلى نهاية العالم» (متى ٢٨: ٢٠) تعني على المستوى الفردي، أنّه معنا في ساعة موتنا. كم هو معزٍّ وحقيقي هذا الصوت الذي سمعه يوحنا في رؤيته: «أكتبْ: طوبى للأموات الذين يموتون في الربّ! أجلْ، يقول الروح، فليستريحوا من جهودهم، لأنّ أعمالهم تتبعهم» (رؤيا ١٤: ١٣). في هذا الخط عينه، كان القدّيس بولس، هو ايضا، يعزّي مسيحيي تسالونيقي، الذين كانوا، في السابق، يعتنقون أفكار الوثنيين والفلاسفة، الذين لم يكونوا يعطون أجوبة أكيدة ومطمئنة حول الحياة بعد الموت، بل كانوا يتحدثون فقط عن قيامة النفس، وليس عن قيامة الجسد، أي للكائن البشري بكامله. بالنسبة إلى بولس، الأساس الأكيد هو قيامة المسيح من بين الأموات، وبالتالي، نحن ايضا المؤمنين به، سنقوم معه، لأنّنا ننتمي إلى جسده. يقول إلى أهل تسالونيقي: «لا نريد، أيّها الإخوة، أن تجهلوا مصير الأموات لئلّا تحزنوا كسائر الناس الذين لا رجاء لهم. فأمّا ونحن نؤمن بأنّ يسوع قد مات ثم قام، فكذلك سينقُل الله بيسوع ومعه أولئك الذين ماتوا... فنكون

هكذا مع الربّ دائمًا أبدًا. فليُشدِّد بعضكم بعضا بهذا الكلام» (١ تسالونيقي ٤: ١٣–١٨).؛ وايضا، (١ قورنتس ١٥: ١٢–٢٣). لا يموت المسيحي وحده. يقول لنا الإيمان إنّ الذي يموت مع المسيح، يعيش معه: «إذا متنا معه حيينا معه» (٢ طيموتاوس ٢: ١١).

٦) الموت واحد لا يتكرّر

تعلّمنا العقيدة المسيحيّة أنّ الموت واحد ولا يتكرّر. والرسالة إلى العبرانيين تؤكّد هذه العقيدة المسيحية بطريقة واضحة: «وكما أنّه كتُب على الناس أن يموتوا مرّة واحدة، وبعد ذلك يوم الدينونة» (إلى العبرانيين ٩: ٢٧). بعد موتنا، لا تعود الحياة بأيّ شكل من الأشكال. وهذا يعني أنّ المسيحي لا يؤمن بتاتًا بالتقمّص. نعني بالتقمص بشكل عام، ولادة النفس من جديد أو عودتها إلى جسد آخر بعد موتها. ثمّة ديانات تتحدّث أيضا عن التبدّل، وتعني انتقال نفس المتوفى إلى أجساد أخرى، حتى النباتية منها أو الحيوانية أو المعدنية، إلى أن تتحرّر النفس تماما من المادّة والشر. إنّ العقيدة المسيحية القويمة رفضت دائما هذه المعتقدات بناء على براهين متعددة.

يناقض التقمّص الحقيقة القائلة بأنّ كلّ شخص يتكوّن من نفس واحدة خاصّة به ومن جسد واحد، يجمعهما جوهر واحد لا ينقسم. إنّ التقمّص يخلق انفصالا غير طبيعي بين الجسد الواحد والنفس الواحدة، واللذين سيتّحدان في القيامة الأخيرة.

وإذا انتقلت الروح إلى عدّة أجساد، فلأيّ منها تنسب لدى قيامة الجسد؟ بالإضافة إلى ذلك، فلأي منهما تعود مسؤولية الأعمال الخلقية؟ وثمّة برهان أساسي آخر، وهو أنّ الموت لأيّ شخص ينهي وقت الخيار، حيث لا يوجد فرصة أخرى لخيار جديد. إنّ الدينونة الإلهية تقوم على ما فعله الشخص اثناء خبرته الوحيدة من حياته البشرية. بهذا المعنى، يقول القدّيس بولس: «لا تضلّوا فإنّ الله لا يُسخر منه، وإنّما يحصد الإنسان ما يزرع. فمن زرع لجسده حصد من الجسد الفساد، ومن زرع للروح حصد من الروح الحياة الأبديّة» (غلاطية ٦: ٧-٨)، وبوضوع أكثر، يقول: «لأنّه لا بدّ لنا جميعا من أن يُكشَف أمرنا أمام محكمة المسيح، لينال كلّ واحد جزاء ما عمل وهو في الجسد، أخيرا كان أم شرًّا» (٢ قورنتس ٥: ١٠). «أن نكون في الجسد» يعني مجرى الحياة البشريّة هو واحد، وينتهي نهائيا بالموت الجسدي. وعلى أساس هذا المجرى الوحيد والذي لا يتكرّر، تتمّ دينونة كلّ واحد. وبكلامه هذا، يشرح القدّيس بولس، بطريقته الخاصّة، تعليم السيد المسيح في مثل حبّة القمح والزؤان (راجع متى ١٣: ١٣-٤٣)، ومثل الشبكة الملأى بالسمك الجيّد والفاسد (راجع متى ١٣: ٤٧-٥٠) وفي خطاب الدينونة الأخيرة، التي يقبل فيها كلّ امرئ جزاء أعماله مدّة حياته (راجع متى ٢٥: ٣٤-٤٦).

ويرتبط هذا بحقيقة أخرى، وهي أنّه لا أحد يحقّ له أن يتصرّف بموته كما يشاء. بتعبير آخر، لا يحق لأحد أن يضع حدًّا

لحياته متى وكيفما شاء. بما أنّه لا أحد هو خالق حياته، فكذلك لا أحد خالق لموته. إنّ الله الخالق هو وحده ربّ الحياة والموت، وهو الذي يهب الحياة منذ البداية إلى النهاية، لأنّ كلّ شيء بين يديه. ولنا لا يبقى سوى قبول أحكامه بالنسبة إلى نهاية حياتنا. وهذا يعني إدانة الأعمال المباشرة ضدّ الحياة، حياتنا نحن وحياة الآخرين. فالضمير الإنساني يرفض، لا القتل فحسب، بل أيضا الانتحار والاجهاض، التي تشكل، بالنسبة إلى الضمير المسيحي، خطايا جسيمة ضدّ الوصيّة الخامسة: «لا تقتل».

كثيرون اليوم يناقشون قضيّة الموت الرحيم المباشر، التي «تقوم على وضع حدّ لحياة أشخاص مُعاقين، أو مرضى، أو على شفير الموت» (التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ٢٢٧٦). إنّ هذا العمل يطلبه البعض اليوم لوضع حدّ للألم، وذلك عن طريق إنهاء الحياة بطريقة غير موجعة. بشكل عام، تعلّم الكنيسة أنّ هذه الأعمال «غير مقبولة من الوجهة الأخلاقيّة» (نفس المرجع، ٢٢٧٦). «أمّا التوقّف عن الاجراءات الطبيّة المكلفة والخطرة وغير العادية، أو التي لا تتناسب والنتائج المرتقبة، يمكن أن يكون شرعيّا» (نفس المرجع، ٢٢٧٨).

٧) الاعتناء الرعوي بالمشرفين على الموت وإكرام الموتى

كما أن السيّد المسيح أظهر عناية خاصّة بالمتألمين والمرضى، كذلك تواصل الكنيسة رسالته تجاه المرضى

والمقبلين على الموت. وهذا الاهتمام يتمّ بطرق مختلفة، وبشكل خاصّ من خلال الأسرار المقدسة: «التوبة، مسحة المرضى والافخارستيا»، التي تشكل «زادا أخيرا، في اللحظة التي تبلغ فيها الحياة المسيحية أجلها» (نفس المرجع، ١٥٢٥). إنّ سرّ مسحة المرضى يمكن منحه لمن يعانون من مرض عضال أو وهن، وبصفة خاصّة لمن اقتربوا من الموت. ليست مسحة المرضى سر الأموات، لأن الذين يقبلونه هم الأحياء، ولكنّه سرّ الاستعداد (القريب أو البعيد) للموت، كي يكون عبورا ومدخلا للحياة الأبدية. لذلك، من الأفضل أن يسبقها سرّ التوبة، لأنّه سرّ التنقية من الخطايا، ويرافقها سرّ الافخارستيا، التي يقبلها المؤمن كزاد أخير، لأنّ الافخارستيا هي عربون المجد: «مَن أكل جسدي وشرب دمي فله الحياة الأبدية» (يوحنا ٦: ٥٤). يجب أن يعنى الأهل بروح المريض عن طريق الأسرار الأخيرة، بالإضافة إلى العناية بجسده.

«يجب معاملة أجساد الموتى باحترام ومحبّة، في الإيمان ورجاء القيامة» (التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ٢٣٠٠). تشمل رتبة الموتى ثلاث مراحل: في البيت حيث تكون الصلاة حول النعش، وفي الكنيسة برتبة الجناز والقدّاس الإلهي، وفي المقبرة، حيث يتمّ مباركة القبر والدفن. لقد اعتُبر دفن الموتى دائما من أعمال الرحمة الجسدية. في العهد القديم، يتمّ التركيز على أعمال دفن الموتى التي قام بها طوبيا (راجع طوبيا ٢: ٤).

والأناجيل تصف لنا بالتفصيل مراسم دفن يسوع (راجع متى ٢٧: ٥٧–٦١، وما يقابلها في الأناجيل الأخرى). في تقليدها العريق، تفضّل الكنيسة الدفن على حرق الأجسام. ولكنّ حرق الجثمان ليس ممنوعا، إن لم يتم لأسباب تناقض عقيدة القيامة المسيحية.

كانت الصلاة من أجل الموتى، وبشكل خاصّ تقديم القداديس عن نيّتهم، ممارسة دائمة، توصي بها الكنيسة، وتشكّل أجمل عمل حبّ نقدّمه من أجلهم. والله وحده يعرف كيف يوزّع نعمه على نفوس المتوفّين. إنّها علامة اتّحادنا بهم. ومن أجل الموتى، يمكن ايضا أن نقوم ببعض الممارسات (الصدقة، التقادم، زيارات المقابر...).

تمارس الكنيسة عادة إكرام ذخائر القدّيسين، لأنّها علامة وذكرى لأجساد المعمّدين، أعضاء المسيح وهيكل الروح القدس. ومع ذلك، يجب أن نتجنّب كلّ مظاهر الشعوذات السحرية.

خاتمة

نختم هذا الفصل باستشهاد من القديسة تريزيا الطفل يسوع في إحدى رسائلها:

«لا أجد على الأرض شيئًا يجعلني سعيدة. فقلبي كبير جدًّا ولا شيء يرضيه ممّا ندعوه غبطة في هذا العالم. فكري يحلّق باتّجاه الأبدية، والزمن سينتهي!... وقلبي هادئ كبحيرة

ساكنة أو كسماء صافية. لست آسفة على حياة هذا العالم، فقلبي عطش إلى مياه الحياة الأبديّة!... بعد قليل تترك نفسي الأرض، وتنهي غربتها... فأصعد إلى السماء... وألامس الوطن، وأنتصر!... أدخل مقام المختارين، وأرى جمالات لم ترها عين بشر، واسمع ألحانًا ما سمعت بها أذن، وأتمتّع بأفراح ما ذاقها قلب قطّ (١ قورنتس ٢: ٩)... ها أنا قد وصلتُ إلى تلك الساعة التي تاقت إليها كلّ واحدة منّا كثيرًا.. إنّه لصحيح فعلا أنّ الله اختار الضعفاء ليخزي الأقوياء في هذا العالم (١ قورنتس ١: ٢٧)... فأنا لا أتّكل على قواي الذاتية، بل على قوّة الذي غلب القوى الجهنمية على الصليب (قولسي ٢: ١٤-١٥). أنا زهرة ربيعيّة يقطفها مالك البستان لمتعته... ونحن جميعا أزهار مزروعة في هذه الأرض، يقطفها الله في حينه، في وقت مبكر أو في وقت متأخر... وأنا الصغيرة السريعة الزوال، أوّل الذاهبين! فسنلتقي يومًا في الجنّة، وسننعم بالسعادة الأبدية»

(القديسة تريزا الطفل يسوع الرسالة ٢٤٥).

كما نختم بهذه الكلمات التي قالها ديتريش بوهوفر، قبل استشهاده في معسكرات الاعتقال النازية عام ١٩٤٣:

«في قلبي ظلام، ولكن بجانبك النور؛ أنا وحيد، ولكنّك لا تتركني؛ أنا خائف، ولكنّ عوني فيك؛ أنا مضطرب، ولكن فيك السلام؛ في قلبي مرارة، ولكن بجانبك الصبر؛ لا أدرك طرقك، ولكنّك أنت تعرف طريقي».

الفصل الثالث

الدينونة الخاصّة والعامّة

١) خلود النفس

يتكوّن الكائن البشري من جسد ونفس. وعند الموت، تنفصل النفس عن الجسد. ولكن ذلك لا يعني فناء الكائن البشري، لأنّ نفسه تستمرّ في الحياة، لأنها روح خالدة. وهذا ما أكدّه لنا يسوع نفسه، عندما كان يدعو تلاميذه إلى شجاعة اتّباعه: «لا تخافوا الذين يقتلون الجسد ولا يستطيعون قتل النفس. بل خافوا الذي يقدر على أن يُهلك الجسد والنفس جميعا في جهنم» (متى ١٠: ٢٨). إن الذين ماتوا قبلنا، والذين سيموتون بعدنا، هم أحياء، كما أكد يسوع نفسه، في جوابه على الصدوقيين الذين لم يكونوا يؤمنون بقيامة الجسد: «وأمّا أن الأموات يقمون، أفما قرأتم في كتاب موسى، عند ذكر العليقة، كيف كلّمه الله فقال: أنا إله إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب. وما كان إله أموات، بل إله أحياء، فأنتم في ضلال كبير» (مرقس ١٢: ٢٦-٢٧). بعد الموت، تبقى النفس منفصلة عن الجسد حتى يوم قيامة الأجساد.

لقد وصف القدّيس بولس، بشكل من الأشكال، حالة النفس بعد الموت، في جوابه لأهل قورنتس الذين طرحوا عليه

الأسئلة حول الحياة بعد الموت: «ونحن نعلم أنّه إذا هُدم بيتنا الأرضي، وما هو إلا خيمة، فلنا في السماوات مسكن من صُنع الله، بيت ابديّ لم تصنعه الأيدي» (٢ قورنتس ٥: ١). بالطبع، ينطلق القدّيس بولس هنا من منظور إيجابي،، اي الموت في حالة الصداقة مع الله: «لذلك ايضا نطمح إلى نيل رضاه، أقمنا في هذا الجسد أم هجرناه» (٢ قورنتس ٥: ٩). ولكي نعرف إن كنا اصدقاء الله حقّا أم لا، فيجب أن نخضع لدينونة الله. كل حياتنا يجب أن تخضع لهذه الدينونة، منذ بدايتها حتى نهايتها. لهذا، يختم القدّيس بولس قائلا: «لا بدّ لنا جميعا من أن يُكشف أمرنا أمام محكمة المسيح، لينال كلّ واحد جزاء ما عمل وهو في الجسد، أخيرا كان أم شرّا» (٢ قورنتس ٥: ١٠).

٢) الدينونة في العهد القديم

كثيرا ما يأتي العهد القديم والجديد على ذكر دينونة الله، في الحاضر أو في المستقبل، دينونة الله للشعب العبراني ولجميع الشعوب، دينونة فردية أو دينونة عامّة، للصالحين والطالحين على حدّ سواء. يصف الكتاب المقدس عدل الله الديان، الذي ينطق بالحكم العادل، ويتعامل مع كل واحد بحسب أعماله، فيجازيه أو يعاقبه. في سفر النبي يوئيل، نقرأ: «فها أنا في تلك الأيام وفي ذلك الزمان حين أردّ اسرى يهوذا وأورشليم، أجمع جميع الأمم وأنزلهم إلى وادي يوشافاط وأحاكمهم هناك...

لتنهض الأمم وتصعد إلى وادي يوشافاط، فإنّي هناك أجلس، لأدين جميع الأمم من كلّ ناحية... في وادي القرار جماهير جماهير. فإنّ يوم الرب قريب في وادي القرار» (يوئيل ٤. ٢. ١٢. ١٤). من الملاحظ هنا أن اسم «يوشافاط» يعني «الله يدين». ويخضع لهذه الدينونة الأخيار والأشرار، مع اختلاف الحكم على هؤلاء وأولئك حسب أعمالهم: «أمّا نفوس الأبرار فهي بيد الله، فلا يمسّها أيّ عذاب. في أعين الأغبياء يبدو أنّهم ماتوا وحُسب ذهابهم مصيبة ورحيلهم عنّا كارثة، لكنّهم في سلام. وإذا كانوا في عيون الناس قد عوقبوا فرجاؤهم كان مملوءا خلودا. وبعد تأديب يسير سيكون لهم إحسانات عظيمة، لأنّ الله امتحنهم فوجدهم أهلا له. كالذهب في البوتقة محّصهم وكذبيحة قُرّبت محرقة قبلهم. في وقت افتقادهم يتلألأون وكالشرر بين القشّ يركضون... أمّا الكافرون فسينالهم العقاب المناسب لأفكارهم، فهم الذين لم يبالوا بالبارّ وارتدّوا عن الرب» (الحكمة، ٣: ١. ٥-٧. ١٠).

٣)تعليم يسوع حول الدينونة

– الدينونة العامّة:

علّم يسوع الكثير حول الدينونة، ومعظم تعاليمه تدور حول الدينونة الأخيرة، لا كموضوع قائم بذاته، بل في إطار رؤية شاملة للحياة. إنه يرى الحياة، ليس فقط كوجود أرضيّ،

بل في توجّهها نحو الحياة الأبديّة. إن هذه الحياة الأرضية، مهما كانت طويلة، مؤقتة، وهي عبارة عن استعداد للحياة الأبدية. كيف سنكون؟ سنكون كما بنينا أنفسنا هنا على الأرض، على أساس المحبّة، إن أحببنا أو لم نحبّ بحسب قلب الله.

إن الديان دائما هو الله، بصفته الخالق وضع شرائعه في قلب الإنسان، وهو يشرك ابنه يسوع في هذه الدينونة، كما يشهد هو نفسه على ذلك: «فكما أنّ الآب له الحياة في ذاته، فكذلك أعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته، وأولاه سلطة إجراء القضاء لأنّه ابن الإنسان. لا تعجبوا من هذا، فتأتي ساعة فيمها يسمع صوته جميع الذين في القبور، فيخرجون منها، أمّا الذين عملوا الصالحات فيقومون للحياة، وأمّا الذين عملوا السيئات فيقومون للقضاء. أنا لا أستطيع أن أفعل شيئا من عندي، بل أحكم على ما اسمع وحكمي عادل، لأنّي لا أتوخّى مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني» (يوحنا ٥: ٢٦-٣٠).

يحدثنا يسوع عن الدينونة لكي يذكّرنا بثلاثة اشياء اساسيّة: ١) مجيئه الأكيد؛ ٢) عدله ورحمته؛ ٣) ضرورة الاستعداد استعداد جيدا وجادًّا، وذلك بعيش حياتنا الحاضرة على أنها فرصة وحيدة لا تتكرر. لهذا الموضوع، يكرّس بعض الأمثلة، كمثل القمح والزؤان، حيث يصف الحصاد الأخير (وهو صورة عن الدينونة الأخيرة).بمخارجه المتناقضة: إما النار التي لا تنطفئ أو الملكوت السماوي (راجع متى ١٣: ٢٤-٣٠،

٣٦-٤٣)؛ وكذلك مثل الشبكة والسمك، حيث سيفصل الله في الآخرة بين الصالح، الذي يتوجه إلى الملكوت، والفاسد الذي يتوجه إلى أتون النار (راجع متى ١٣: ٤٧-٥٠). وكذلك مثل الوكيل الأمين (متى ٢٤: ٤٥-٥١) ومثل العذارى العشر (متى ٢٥: ١-١٣). يصف المثل الأول عدة حالات من الانتظار، الانتظار اليقظ للخادم الأمين، والانتظار الكسول للخادم الأناني. والمثل الآخر يمتدح العذارى الخمس الحكيمات اللواتي استحققن أن يدخلن ردهة العرس، ويذمّ العذارى الجاهلات اللواتي لم يستحققن الدخول في ردهة العرس.

أما المثل المعروف، فهو المشهد الدرامي للدينونة الأخيرة الشاملة، وهو مثل وحقيقة في الوقت عينه. وتُدعى «الدينونة الأخيرة» لأنها ستأتي في نهاية العالم، عند قيامة الأجساد وعودة المسيح ثانية. وتُدعى «الدينونة العظمى»، لأنها تشمل جميع الشعوب وكل فرد من أيّ زمن كان. في هذه العودة الأخيرة للسيد المسيح، يدين يسوع كل الكائنات البشرية على أساس أعمالهم، أعمال المحبّة التي قاموا بها أم لم يقوموا (راجع متى ٢٥: ٣١-٤٦). عندها، سيكون الفصل بين الأخيار (الذين ترمز إليهم الخراف) والأشرار (الذين ترمز إليهم الجداء). أما المختارون، فيسمعون الكلمات المعزّية والمخلِصة: «تعالوا، يا من باركهم أبي، فرثوا الملكوت المُعدّ لكم منذ إنشاء العالم» (متى ٢٥: ٣٤). أمّا للأشرار، فينطق بكلمات الإدانة الرهيبة: «إليكم عنّي، ايّها

الملاعين، إلى النار الأبدية المُعدّة لإبليس وملائكته» (متى ٢٥: ٤١).

من بين جميع الاعتبارات الكثيرة التي يمكن أن نبرزها في هذا المشهد، حيث كل كلمة تشرح الأخرى، نكتفي بتسليط الضوء على اثنتين أو ثلاث من هذه الكلمات. للمخلَّصين، يقول يسوع: «تعالَوا، يا من باركهم أبي. رثوا...»، وهذا ما يبين أن كل شيء هو هبة من الله وله الفضل فيه. ولقد عرف هؤلاء كيف يقبلونها ويستثمرونها. إنه يدعوهم «مباركي أبي»، أي أنّ الله يحبهم، لأنهم هم أحبّوا الله. لقد أُعدّ الملكوت لهم «منذ انشاء العالم»، وهو ما يعني أنّ الله يعدّ سلفًا للخلاص (كما يقول القدّيس بولس في رومة ٨: ٢٩-٣٠؛ أفسس ١: ٣-٦). في هذا الإطار، نفهم الكلمات للملاعين، التي لا يضيف النصّ إليها شيئا، لأن الله لا يلعن أحدًا. إنه دائما وفقط حبّ (راجع ١ يوحنا ٤: ٨). في الحقيقة، هم الذين يعتبرون أنفسهم «ملاعين»، لأنّهم أحجموا عن الحبّ. إنّهم يلعنون أنفسهم، لأنّهم اهتمّوا فقط بتكديس الكنوز على الأرض، لا للسماء (راجع متى ٦: ١٩-٢٠). لقد أُعدَّت جهنم من أجل إبليس وملائكته، وليس لأحد آخر. أما الأشرار، فقد اختاروه بحريتهم، لأنّهم أنغلقوا على أنانيتهم بعيدًا عن الحبّ. ولقد سبق أن حذرهم يسوع: «فهكذا يكون مصير من يكنز لنفسه ولا يغتني عند الله» (لوقا ١٢: ٢١).

إنّ يسوع، كما يشير إلى ذلك اسمه بالذات (يسوع معناه المخلّص) مخلّص. إنّه مخلّص فقط، لا مُدين. إنّه «مخلّص العالم»،

بحسب تعبير السامريين الرائع (راجع يوحنا ٤: ٤٢) والمُخلّص الوحيد. لقد قال: «إن سمع أحد كلامي، ولم يحفظه، فأنا لا أدينه، لأنّي ما جئت لأدين العالم، بل لأخلّص العالم. مَن أعرض عنّي ولم يقبل كلامي، فله ما يدينه: الكلام الذي قلته يدينه في اليوم الأخير» (يوحنا ١٢: ٤٧-٤٨). فضمير الهالك هو الذي يقول له: «أنت الذي لم تشأ سماع كلمة الربّ ولم تتبعه». إنّه ضميرنا هو الذي يديننا، استنادا إلى كيفية عيش حياتنا، اي بحسب تجاوبنا مع نعمة الله وهبته، أو رفضنا لها. أمام المسيح، الذي هو الحقّ، ستظهر حقيقتنا. وهذا ما يعبر عنه القديس بولس بوضوح عندما يقول إن الله «يجازي كلّ واحد بحسب أعماله، إمّا بالحياة الأبدية للذين بثباتهم على العمل الصالح يسعَون إلى المجد والكرامة والمنعة من الفساد. وإمّا بالغضب والسخط على الذين يثورون فيعصون الحقّ وينقادون للظلم. فالشدّة والضيق لكل امرئ يعمل الشرّ: اليهوديّ أولا ثم اليوناني، لأنّ الله لا يحابي أحدًا» (رومة ٢: ٦-١١).

- الدينونة الخاصّة:

بالإضافة إلى الدينونة العامّة، يبيّن يسوع ايضا الدينونة الخاصة لكل واحد، في نهاية حياته. لم يتكلم يسوع عن ذلك مباشرة وبصراحة كما هو الحال مع الدينونة العامّة، ولكن أوضحه من خلال كلامه وإشاراته. وهذا واضح في مثل الغني

ولعازر المسكين (راجع لوقا ١٦: ١٩-٣١)، حيث يؤكّد أنهما قبلا مكافأتهما، مباشرة بعد موتهما. يقول يسوع: «مات المسكين فحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم» (لوقا ١٦: ٢٢). والعبارة «حضن إبراهيم» هي كناية عن السماء، كما تشير إلى ذلك العبارة التالية: «حيث يُعزَّى» (لوقا ١٦: ٢٥). والغني «مات ثم دُفن» «في مثوى الأموات يقاسي العذاب» «في هذا اللهيب» (لوقا ١٦: ٢٣-٢٤). وهكذا، نرى أنّ الغني يقيم في مكان مختلف، مكان عذاب كبير. بما أن لعازر والغني توجها مباشرة بعد موتهما كلٌّ إلى مكانه، فهذا يفرض أنّهما مرّا بالمحكمة الإلهية. لقد اصدر الله حكمه على لعازر الفقير، فذهب إلى الفرح، والغني الأنانيّ إلى العذاب.

إن تفكيرا من هذا النوع يمكن أن يشمل أيضا وعد يسوع للص اليمين، الذي توسل إليه قائلا: «أذكرني يا يسوع إذا ما جئت في ملكوتك» (لوقا ٢٣: ٤٢). أجابه يسوع: «الحق اقول لك: ستكون اليوم معي في الفردوس» (لوقا ٢٣: ٤٣). يحمله معه إلى الفردوس، لأنّه أعرب عن توبته (وبالتالي عن حبّه) في هذه اللحظات الأخيرة، ويسوع يعرب له عن حبه الرحيم. إنه يعده بالفردوس «الآن»، مباشرة بعد الموت، لأنه يراه أهلا له (وهذه هي الدينونة الخاصة). باختصار، يقول التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية بخصوص الدينونة الخاصة: «كل إنسان ينال في نفسه الخالدة جزاءه الأبديّ، منذ موته،

في دينونة خاصّة تُحال فيها حياته إلى المسيح، إمّا عبر تطهير، وإمّا للدخول مباشرة في سعادة السماء، وإمّا للهلاك الفوريّ والدائم» (١٠٢٢).

تتميّز الدينونة الخاصة إذًا عن الدينونة العامّة، ولكنّ الواحدة لا تلغي الأخرى. تتعلّق الدينونة الخاصة بكل كائن بشري على انفراد، حيث إن الله يفحصه ويحكم عليه استنادا إلى أعماله (الفكر، القول، العمل، المشاعر، الإرادة...). أمّا الدينونة العامّة، فتتعلّق ايضا بكل واحد على انفراد، بعد أن يكون الجسد قد انضمّ إلى النفس من جديد بعد قيامة الموتى، ولكن المشهد مختلف. فالدينونة الأخيرة تكون بمحضر البشرية جمعاء من كل زمان ومكان، بمحضر الملائكة وفي إطار الكون كلّه. ستكون الدينونة الأخيرة دينونة لتاريخنا الشخصي في إطار التاريخ العام. وهذا ما يصفه التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية قائلا: «ستقع الدينونة لدى عودة المسيح المجيدة. الاب وحده يعرف الساعة واليوم، هو وحده يقرّر حدوثها. سيعلن بابنه يسوع المسيح كلمته الأخيرة على التاريخ كلّه. سنعرف المعنى الأخير لكلّ تاريخ الخليقة وكل تدبير الخلاص، وسنفهم السبل العجيبة التي قادت بها عنايته كلّ شيء نحو غايته القصوى. وستكشف الدينونة الأخيرة أنّ برّ الله ينتصر على كل المظالم التي ترتكبها خلائقه، وأنّ محبّته اقوى من الموت» (رقم ١٠٤٠).

كيف ستجري هذه الدينونة الأخيرة؟ لكلٍّ حكم، بشري أم

إلهي، سلسلة من الاجراءات: ١) فحص سلوكيات كلّ واحد؛ ٢) دفاع واتّهام؛ ٣) القرار بحسب القوانين المرعيّة (الحكم)؛ ٤) تنفيذ الحكم: الاعتراف ببرارة الصدّيق وإعلان إدانة المذنب. إذا ما قرأنا كلمات يسوع حول الدينونة العامة والنهائية، نجد فيها كل هذه العناصر (راجع متى ٢٥: ٣١-٤٦). بشكل عام، يثير الحكم الإلهي شعورا بالخوف والرهبة، لأنّه لا أحد يشعر بالنقاوة الكاملة أمام الله القدّوس، الذي يجد حتى في ملائكته ما يُلامون عليه (راجع ايوب ٤: ١٨). ولكنّ يوحنا، التلميذ الذي كان يسوع يحبّه، يطمئننا قائلا: «لا خوف في المحبّة، بل المحبّة الكاملة تنفي عنها الخوف، لأن الخوف يعني العقاب، ومَن يخف لم يكن كاملا في المحبّة» (١ يوحنا ٤: ١٨). ويضيف قائلا: «بذلك نعرف أنّنا من الحقّ ونسكن قلبنا لديه. فإذا وبّخنا قلبنا، فإن الله أكبر من قلبنا وهو بكلّ شيء عليم» (١ يوحنا ٣: ١٩-٢٠). إننا لا نضع ثقتنا بأنفسنا، بإيماننا وأعمالنا، بل في محبّة الله ورحمته لنا. ونجد في كلمة يسوع ما يقوينا ويطمئننا: «الحقّ الحقّ اقول لكم: من سمع كلامي وآمن بمن أرسلني، فله الحياة الأبدية ولا يمثل لدى القضاء، بل انتقل من الموت إلى الحياة» (يوحنا ٥: ٢٤).

٤) تعليم الرسل

كثيرا ما أتى رسل يسوع على ذكر الدينونة في كلامهم للمؤمنين وللوثنيين، مع التركيز بشكل خاصّ على الدينونة

في اليوم الأخير. ينهي القدّيس بولس خطابه إلى أهل اثينا في الأريوباغس بذكر الدينونة العامة: «فقد أغضى الله طرفه عن أيام الجهل وهو يعلن الآن للناس أن يتوبوا جميعا وفي كلّ مكان، لأنّه حدّد يوما يدين فيه العالم دينونة عدل عن يد رجل أقامه لذلك، وقد جعل للناس أجمعين برهانا على الأمر، إذ اقامه من بين الأموات» (أعمال الرسل ١٧: ٣٠-٣١). ولكن مثل هذا التعليم حول الدينونة الأخيرة، فنجده بشكل خصوصي في التعليم الذي يوجهه للمسيحيين، فيحثّهم على التفكير بيوم اللقاء بالرب: «لا تضلّوا فإن الله لا يُسخَر منه، وإنما يحصد الإنسان ما يزرع. فمن زرع لجسده حصد من الجسد الفساد، ومَن زرع للروح حصد من الروح الحياة الأبديّة» (غلاطية ٦: ٧-٨).

والقدّيس بطرس ايضًا يعلن بكل جرأة، بعد معجزة شفاء الأعرج عند باب الهيكل، أنّه باسم يسوع حصلت هذه المعجزة. ويسوع نفسه هذا سيعود في «ايام الفرج» (أعمال الرسل ٣: ٢٠)، وبالتالي «يجب أن تتقبّله السماء إلى أزمنة تجديد كلّ ما ذكره الله بلسان أنبيائه الأطهار في الزمن القديم» (أعمال الرسل ٣: ٢١). وفي بيت قرنيليوس، يعلن بوضوح أنّ يسوع هو ديان الجميع، إذ يقول: «وقد أوصانا أن نبشّر الشعب ونشهد أنّه هو الذي اقامه الله ديّانًا للأحياء والأموات» (أعمال الرسل ١٠: ٤٢). وبعد سنوات، في رسالته الأولى إلى مسيحيي الشتات في آسيا الصغرى ليسند إيمانهم وسط الشدائد والمحن، يدعو المؤمنين

إلى توجيه أنظارهم إلى الحياة الآتية، حيث سيكون الله مصدر كلّ خير: «إقتربت نهاية كلّ شيء. فكونوا عقلاء قنوعين، لكي تقيموا الصلاة. وقبل كلّ شيء، ليُحبّ بعضكم بعضا محبّة ثابتة، لأنّ المحبّة تستر جمًّا من الخطايا»، «ايها الأحبّاء، لا تستغربوا الحريق الذي اصابكم لامتحانكم، كأنّه أمر غريب حلّ بكم، با افرحوا بقدر ما تشاركون المسيح في آلامه، حتى إذا تجلّى مجده كنتم في فرح وابتهاج»، «فقد حان الوقت الذي فيه تبتدئ الدينونة ببيت الله. فإذا بدأت بنا، فما تكون عاقبة الذين أعرضوا عن بشارة الله؟ وإذا كان البارّ يخلص بعد جهد، فأيًّا تكون حالة الكافر الخاطئ. وأمّا الذين يتألّمون كما شاء الله، فلْيستودعوا الخالق الأمين نفوسهم مواظبين على عمل الخير» (١ بطرس ٤: ٧-٨، ١٢-١٣، ١٧-١٩).

أمّا يوحنا، في سفر الرؤيا، فإنه يتناول، بشكل حصري تقريبا، مواضيع تتعلق بالأخرويات. فسفر الرؤيا هو سفر الأزمنة الأخيرة، الذي كثيرا ما يأتي على ذكر الدينونة الأخيرة، وذلك عندما يقول، على سبيل المثال: «ورأيت عرشا عظيما أبيض والجالس عليه. فمن وجهه هربت الأرض والسماء ولم يبقَ لها اثر. ورأيت الأموات كبارًا وصغارًا قائمين أمام العرش. وفُتحت كُتُبٌ، وفُتح كتاب آخر هو سفر الحياة، فحوكم الأموات، وفقًا لما دوِّن في الكتُب... ومَن لم يوجد مكتوبا في سفر الحياة أُلقي في مستنقع النار» (رؤيا ٢٠: ١١-

١٢. ١٥). إن «كتاب الحياة»، لا بل كتب الحياة، تكتب فيها أعمال البشر الصالحة أو الشريرة، التي سيدانون على اساسها، فيتوجهون، تبعا لذلك، إلى مدينة الله المقدسة أو إلى «مستنقع النار والكبريت» (رؤيا ٢٠: ١٠).

خاتمة

نختم هذ الفصل ببعض اقوال القديسة مريم يسوع المصلوب (مريم بواردي)، القديسة الفلسطينية حول الدينونة:

«لا تعاملنا بحسب عدلك، بل بحسب رحمتك، لأنّك وحدك القدوس، وأنت وحدك العادل... عاملنا، يا ربّ، بحسب رحمتك... ليس الله الذي يعاقب، بل الإنسان هو الذي يجلب العقاب لنفسه. لا يوجد إنسان واحد يقدر أن يشتكي على الله... يا إلهي، كن أنت قاضيا لنا، ليس كما يقضي الإنسان بل الله، كأب وخالق... اشكرك، ربِّ، لأنّك تريد أن تكون قاضيا لي. أفضّل ألف مرّة أن تكون أنت القاضي ولا أنا الذي أحكم على نفسي. لو كنت أنا القاضي، لحكمت على نفسي بجهنم. وأمّا أنت، يا ربّ، فسترحمني... ربّ، أنا سوداء، أشدّ سوادًا من الفحم، ولكنّ رحمتك أوسع من البحر وستغسلني» (أفكار واقوال، ص ٥٤-٥٥)

الفهرس

مقدّمة	٣
الفصل الأول: معنى الحياة وقيمتها	٨
الفصل الثاني: الموت	٢٤
الفصل الثالث: الدينونة الخاصّة والعامّة	٥١